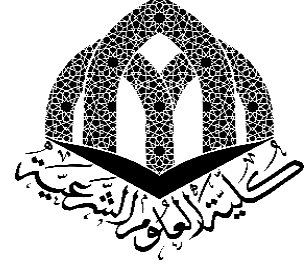


سلطنة عمان

كلية العلوم الشرعية



بحث تخرج بعنوان:

مواطن مسالك الدين في دعوة الإباضية وآثارها

إعداد الطالب: إبراهيم بن حافظ بن محمد الشهيمي

مشرف البحث: د. سعيد الوائلي

العام الدراسي: ١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

إهداء

إلى أُمي لباب القلب مني
إلى تلك التي تكسو جلالا

إلى ذاك الهمام أبي عليه
شآبيب الرضا منه تعالى

إلى الأخوات إخواني جميعا
إليكم كلكم أهدي نوالا

نوالا من حروف لا ألوف
عسى ربي يبارك ذا النوالا

إلى أُمي وأبي وإخواني وأخواتي جميعا أهدي مشروع التخرج

إبراهيم بن حافظ الشهيمي

شكر وتقدير

أشكر الله تعالى أولاً وآخراً؛ فهو أهل الحمد والشكر والثناء، وأساس كل من وعطاء، ثم أوجه شكري لكل إنسان كانت له يد بيضاء وفكر نير وضاء ساعدني على نجاح مشروعي هذا وإخراجه إلى حيز الوجود، سواء كان بالنصح والإرشاد أو بالمتابعة والإشراف أو بالدعاء والاهتمام، وأخص بالشكر أولاً: الدكتور سعيد الوائلي الذي تحمل أعباء الأشراف والمتابعة، وكان لي مقام الأب لابنه، والدكتور إبراهيم الغماري الذي وقف معي وقفة صادقة، وحفني بإرشاده وتوجيهه، كما أخص بالشكر جميع المشايخ والأساتذة الذين درسونا ودربونا على كتابة البحوث العلمية، ولولاهم ما كتبنا بحثاً ولا أنجزنا مشروعاً، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، وأخص بالشكر الجزيل أيضاً والدتي العزيزة التي طالما حفتني بدعواتها، ولطالما باتت تسأل عني وعن انجازي للبحث بين الفينة والأخرى حتى أخرجه الله وتم بحمده وتوفيقه؛ فاطمأن فؤادها وانشرح صدرها. أسأل الله أن يجزيكم جميعاً عنا خير الجزاء وأن يرضى عنكم ويزيدكم من واسع فضله، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

فهرس المحتويات

المقدمة.....	٨
التمهيد.....	١٣
المبحث الأول: مسلك الظهور.....	١٦
المطلب الأول: تعريفه ومشروعيته وشروطه وأهدافه.....	١٦
أولاً: تعريف الظهور.....	١٦
ثانياً: مشروعية الظهور.....	١٧
ثالثاً: شروط الظهور.....	١٨
شروط الإمام.....	١٩
رابعاً: أهداف الظهور ودوافعه.....	٢٣
المطلب الثاني: تنصيب الإمام.....	٢٥
أولاً: الترشيح.....	٢٥
ثانياً: البيعة.....	٢٦
متى يعزل الإمام.....	٢٨
المطلب الثالث: من مواطن الظهور وأثرها.....	٣٠
الجلندى بن مسعود.....	٣٠

٣٠.....	قبل الامامة.
٣١.....	توليته.
٣٢.....	سيرته.
٣٢.....	أثر إمامته.
٣٦.....	استشهاده.
٣٧.....	الدولة الرستمية.
٤١.....	المبحث الثاني: مسلك الدفاع.
٤١.....	المطلب الأول: تعريف الدفاع وموجباته وأهدافه.
٤١.....	أولاً: تعريفه.
٤٢.....	ثانياً: موجباته وأهدافه.
٤٤.....	المطلب الثاني: ما بعد الدفاع.
٤٦.....	المطلب الثالث: من مواطن الدفاع وأثرها.
٤٩.....	المبحث الثالث: مسلك الشراء.
٤٩.....	المطلب الأول: تعريف الشراء ومشروعيته وشروطه وأهدافه.
٤٩.....	أولاً: تعريف الشراء.

ثانيا: مشروعية الشراء.....	٥٠
ثالثا: شروط الشراء.....	٥٠
١ - شروط الشاري.....	٥١
٢ - الشروط العامة.....	٥١
رابعا: أهداف الشراء وموجباته.....	٥٢
المطلب الثاني: منبع فكر الشراء.....	٥٥
المطلب الثالث: من مواطن الشراء وأثرها.....	٥٨
أبو بلال - مرداس بن حدير.....	٥٨
أبو حمزة الشاري.....	٦٠
أولا: دخوله مكة المكرمة.....	٦٠
ثانيا: دخوله المدينة المنورة.....	٦٣
المبحث الرابع: مسلك الكتمان.....	٦٩
المطلب الأول: تعريف الكتمان.....	٦٩
المطلب الثاني: الإباضية ومخالفاتهم في مرحلة الكتمان.....	٧٢
المطلب الثالث: من مواطن الكتمان وأثرها.....	٧٦
أولا: التنظيمات السرية في عهد الإمام جابر بن زيد.....	٧٨

ثانيا: التنظيمات السرية في عهد الإمام أبي عبيدة.....	٨١
المبحث الخامس: نظام العزابة.....	٨٧
أولا: تعريف نظام العزابة.....	٨٧
ثانيا: نشأة النظام.....	٨٧
ثالثا: شروط الإنضمام.....	٨٨
رابعا: مهام النظام.....	٨٨
خامسا: دوره في كفاح الباطل.....	٨٩
الخاتمة.....	٩٢
فهرس المصادر والمراجع.....	٩٤

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، أنزل حكمه للعالمين، ويسر أمره للمهتدين، وجعل له سبيلا للمسلمين، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين، سيدنا ونبينا وحبينا وقودتنا وإمامنا محمد بن عبد الله، سيد الأولين والآخرين وخاتم النبيين والمرسلين، صلى الله عليه وسلم وعلى كل من سار واقتفى على أثره إلى يوم الدين. وبعد:

فهذا بحث بعنوان: مواطن مسالك الدين في دعوة الإباضية وآثارها، يعالج قضية مهمة في السياسة الإسلامية عند المسلمين، وهي نظرية مسالك الدين: (الظهور والدفاع والشرء والكتمان) تلك النظرية السياسية الاجتماعية التي تحتم على الإباضية أن يختاروا أيها يسلكون ويدخلون تحت ظل سياستها، وهذا وفق الأحوال والظروف التي كانت تعترهم، وكانت لها ميادينها الحية في مختلف حقبة التاريخ، وقد وفقت أغلب تجاربهم فيها، وحققت نجاحات لا يمكن أن تخفى بحال، سواء في المستوى الديني أو الدنيوي، كان على المسلمين أن يعلموها ليخدموا بذلك الفكر السياسي الإسلامي بمزيد من النظريات، ولكن هذه المرة نظريات كانت أرضا واقعا لا مجرد فلسفة ألفت في الكتب دون تطبيق لها؛ ليتخذوا بعدها مواقف من قبيل هذه المسالك تحت ظل أي ظرف يعتري الأمة الإسلامية؛ ليدركوا بعدها مدى إمكانية الشرع الحنيف وسعته في التعامل مع مختلف الظروف والأحوال. ومن هنا تبرز أهمية الموضوع.

سبب اختياري لهذا الموضوع:

هو أنني رأيت بأن هذه النظرية يكاد ينفرد بها المذهب الإباضي عن غيرها من المذاهب الإسلامية؛ فلا تسمع بمسالك الدين إلا في المذهب الإباضي، مع أن مؤلفاتهم في الفلسفة كانت غنية بكثير من النظريات السياسية، وقد غلب عليها الطابع النظري لا العملي، وليس فيها ما يثلج الصدر عن نظرية مسالك الدين، رغم أهميتها ورغم أنها قد طبقت في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ إذن فأمر المسالك في الأصل لا يخص المذهب الإباضي وحسب بل

من الواجب أن يعلمها ويعيها ويطبقها جميع المسلمين؛ كونها كانت واقعا يوما ما في عهد النبي صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى لهذه الأمة، وليس من العدل بأن يغض بقية المسلمين الطرف عنها من مختلف المذاهب، كونها لم تكن أرضا واقعا في تأريخهم المذهبي كما كانت مع الإباضية؛ لأن الأمة بداية أمة واحدة ربها واحد، ورسولها واحد، ودينها واحد، فيستفيد كل مذهب من تجارب المذهب الآخر هذا جانب، والأمر الآخر بأنه وإن لم تطبق معهم في مختلف حقبة الماضي، فقد يأتي زمن يحتاجون فيه لتطبيقها حتما. لأجل ذلك وقع اختياري على هذا الموضوع؛ حتى أعرف الناس من جميع الطوائف والأجناس بتجربة المذهب الإباضي في مسالك الدين، وأنقل لهم صورة حية لهذه التجربة ومدى أثرها وفعلها في نجاح الأمة.

وأما ما يخص الدراسات السابقة في هذا الموضوع:

فقد درسها الأستاذ عدون جهلان بعنوان: "الفكر السياسي عند الإباضية"، وكانت دراسته في هذا الكتاب مركزة على بيان الفكر السياسي عند الإباضية بحسب آراء قطب الأئمة، وقد تكلم عن نظرية مسالك الدين في فصل أنواع الإمامات، وهذه أهم دراسة وجدتها في موضوع بحثي إلا أنها ليست دراسة كافية للهدف الذي كنت أطمح له؛ فقد كنت أرغب أن تكون الدراسة في مسالك الدين تشملها من كل جانب، ويكون الأهم فيها بيان المواطن لكل مسلك وبيان أثرها.

ومن الصعوبات التي واجهتني في كتابة البحث:

أن طبيعة موضوع البحث لم تكن من النوع السهل، الذي يقتصر على جمعه من مصادر ومراجع معينة أو في فن محدد، بل كانت به ازدواجية وتداخل؛ ففيه السياسة والفلسفة والتأريخ والعقيدة وشيء من الفقه؛ ولذا تحتم علي أن أبحث وأجمع مادة البحث من مصادر ومراجع متنوعة، مثل: كتب التأريخ والفلسفة والفقه والعقيدة لمزيد من التفصيل والبيان والتمثيل لكل مسلك من مسالك الدين؛ لإظهارها للقارئ بصورتها المثالية. إضافة إلى ضيق الوقت الذي كنت أجمع فيه مادة البحث.

وأريد أن أشير هنا إلى أمر مهم فيما يخص موضوع البحث: (مواطن مسالك الدين في دعوة الإباضية وآثارها): قد يأتي في ذهن القارئ بأني سأعتمد في تتبع جميع المواطن، وهذا أمر متعذر علينا؛ إذ تتبع جميع المواطن وبيان أثرها يحتاج إلى مجلد كامل، وإلى بحث أوسع من بحثي بكثير، وكما تعلمون بأن بحوثنا لها حد معين من عدد الأوراق لا يتجاوز ثمانين ورقة؛ ولذا أعرضت عن تتبع جميع المواطن، على أمل أن أجمعها -إن شاء الله- في بحث مستقل إن كتب الله لي العمر. وجمعت في بحثي هذا أحد أهم المواطن وأبرزها لكل مسلك؛ لأنقل الصورة الحية لكيفية تطبيق مسالك الدين ومدى أثرها، فالهدف هو إثبات حقيقة نظرية مسالك الدين في دعوة الإباضية وقوة أثرها، وأنها واقع حي وليست مجرد تنظير فلسفي.

لذا عمدت في بحثي أولاً: على تعريف "مسالك الدين" وبينت أغلب ما يخصها من مسائل. بعدها أثبت واقعيتهما في المذهب الإباضي عن طريق التمثيل لها ببعض المواطن.

وكانت خطتي للبحث كالآتي:

خمس مباحث ولأول أربعة مباحث ثلاثة مطالب وهي: المبحث الأول: مسلك الظهور، وعرفت فيه المسلك لغة واصطلاحاً، وذكرت مشروعيته وشروطه وأهدافه؛ فكان المطلب الأول، ثم ذكرت كيفية تنصيب الإمام وهذا المطلب الثاني، أما المطلب الثالث والأخير فخصصته لذكر بعض الأمثلة الحية لمسلك الظهور وبيان أثرها. ثم المبحث الثاني: مسلك الدفاع، قمت بتعريفه وذكرت أهدافه ودوافعه في المطلب الأول، أما المطلب الثاني: فكان عن حال المسلمين بعد الدفاع، والمطلب الثالث: لبيان بعض الأمثلة لمسلك الدفاع وبيان أثرها، بعدها المبحث الثالث: مسلك الشراء، وقد قسمته إلى المطالب التالية: المطلب الأول: تعريفه وذكر مشروعيته وشروطه وأهدافه ودوافعه، والمطلب الثاني: منبع فكره وتأسسه، أما المطلب الثالث: نماذج لمسلك الشراء وأثرها. ثم المبحث الرابع: الكتمان، المطلب الأول: تعريفه ومشروعيته، والمطلب الثاني: علاقة الإباضية بمخالفهم في مرحلة الكتمان، والمطلب الثالث: مواطن للكتمان وأثرها. أما المبحث الخامس والأخير فقد خصصته لنظام العزابة؛ كونه نوعاً مستقلاً من المسالك. وأخيراً ختمت البحث بخاتمة، ذكرت فيها خلاصة بحثي ونتائجه وتوصياتي فيه وبالله التوفيق.

إشكالية البحث:

يمكن أن نجعلها في صيغة أسئلة:

- ١- ما حكم الإمامة، وما الحل إن تعذر قيامها؟
 - ٢- ماذا نعني بمسالك الدين وهل هي مشروعة بالكتاب والسنة والإجماع؟
 - ٣- ما هدف الإباضية ودوافعهم من كل مرحلة من مراحل مسالك الدين؟
 - ٤- ما أهمية مسالك الدين في واقع المسلمين وهل استطاع الإباضية تطبيقها كما يجب وما أثر تطبيقها؟
 - ٥- ما هو نظام العزابة وماذا استفاد منه الإباضية في القديم والحديث؟
 - ٦- هل لدراسة مسالك الدين وفهم نظريتها ومحاولة تطبيق تجاربها فائدة ترضى لصالح حال المسلمين اليوم؟
- ومن منطلق هذه التساؤلات سعت لجمع مادة البحث.

منهج البحث:

وانتهجت في كتابتي للبحث المنهج التاريخي والتحليلي معاً؛ إذ اقتبست من كتب التاريخ ما يهمني من أحداث فيما يخدم مسالك الدين، وأخذت أفكاراً من كتب الفقه والعقيدة والفلسفة والسياسة، وبدأت بالسبك والتحليل والتوضيح والمقارنة، محاولاً عرض الصورة واضحة للقارئ عن نظرية مسالك الدين، آملاً أن يتخذ موقفاً جاداً نحوها ويعترف بها إن كانت تجربة ناجحة أم لا! طامعاً أن تصل للمسلمين كما ينبغي؛ حتى تعي الأمة قوة سياسة الدين، فلا يكون هناك تطرف يؤدي إلى قتل الأبرياء، ولا يكون هناك تساهل يمكن الأعداء، بل الوسطية والاعتدال في كل شيء؛ وهذا ما تعلمنا إياه نظرية مسالك الدين.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى جَلَّتْ قُدْرَتُهُ أَنْ يَجْمَعَ كَلِمَةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْحَقِّ، وَيُوَحِّدَ صَفُوفَهُمْ، وَيَكْسِرَ
شُوكَةَ أَعْدَائِهِمْ إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَآخِرُ دَعْوَانَا
أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَافِظِ الشَّهِيمِيِّ

تمهيد

مسالك الدين: هي تلك "الطرق التي يتوصل بها إلى إنفاذ الأحكام الشرعية، وهي تعبر عن مراحل الامامة الاباضية- التي يمكن ان تحتازها في مختلف أدوار حياتها إزاء واجب الدعوة لدين الله"^١. ويسلك الإباضية أحد هذه المسالك، ويتخيرون مسلكهم بحسب الظروف والأحوال المحيطة بهم، فيما أن يكونوا ظاهرين على أعدائهم، ولهم الحرية التامة في أراضيهم، مستقلين في حكمهم فيها، يطبقون شرع الله وسنة رسوله كما أمر الله، ولا يكون حكم فوق حكمهم إلا حكم الله، فهذه الحالة هي حالة الظهور، وهي أكمل المراحل وأفضلها، وهي التي يجب أن يكون عليها المسلمون؛ فالعزة إنما تكون لله وللرسول وللمؤمنين، كما قال الله تعالى في محكم كتابه: ((ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين))^٢.

فإذا ضعفت الأمة المسلمة، ونزلت عن هذا المقام والشرف، وتكالب عليها الأعداء من الداخل والخارج، ورأت الفساد يمج في البلاد، فليس لها أن تستكين لهذا الواقع المظلم، ولا أن تسلم القيادة للظلمة دون كفاح ومحاولة للإصلاح، قال تعالى: ((ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون))^٣، فالواجب إذن: محاولة الرد الأمور إلى مجاريها قدر الطاقة والاستطاعة، فإن تكبر العدو وتمادى في الطغيان، ولم يجب داعي الرحمان، فقد أذن بحرب من المؤمنين الأتقياء: هي الثورة في سبيل الله ضد الظلم والعدوان، وهي التي يسميها الإباضية: "الدفاع". وفي مسلك الدفاع ينصب إماما يقود المدافعين عن دين الله في سبيل الله، وله على الثوار المؤمنين حق الطاعة والامتثال، ويكون إماما مؤقتا: أي يكون قائدا عسكريا يقود الثورة حتى نهايتها، فإذا انتهت الثورة، سواء بالنجاح أو بالفشل، والنجاح يكون برجوع أهل الظلم إلى رشدهم والاستجابة لمطالب الثوار، أو بقلب النظام الظالم إلى نظام إسلامي عادل، حينها يعلن الظهور، ولا يحق لإمام المدافعين المطالبة بمنصب الإمامة الجديدة، إلا إذا اختاره الناس حاكما عليهم لمرحلة الظهور، بعد أن يجتمعوا ويفكروا بهدوء وعمق وتأن،

^١ عدون جهلان، الفكر السياسي عند الإباضية، ط٣، مكتبة الضامري، السيب، سلطنة عمان، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م،

ص ١٧٧

^٢ (التغابن: ٨)

^٣ (آل عمران: ٦٣)

وبعد أن ينظروا في اكتمال الشروط التي وضعها المؤمنون في اختيار الأئمة، وهذا يقوم به العلماء العاملون المخلصون.

فإذا ضعف المسلمون حتى عن الدفاع، ولم تكن معهم تلك القوة والإرادة التي تنور بهم نحو محاربة الظلم والاستبداد، وخافوا على أنفسهم من بطش الأعداء، حينها يكون المسلك الثالث: وهو الشراء، فإذا صار عددهم أربعون وأكثر، حق لهم الشراء في سبيل الله، وحيث أن هذه الثورة بهذا العدد القليل من الشراة لا يتوقع تمكنها من الدولة الظالمة المسلحة، فلا أقل أن تكون هذه الثورة شغبا عليها، ورعبا وقلقا يسود أصحابها، حتى لا تطمئن لتنفيذ خططها المستبدة الجائرة، فالشراء هو أمل المؤمنين الباقي بعد هذه الوهدة والضعف، يترقبون من بعيد أن يكتب الله للشراة النصر والتأييد، وأن يجعل في قلوب الظلمة الرعب والخوف؛ حتى يكفوا عن استبداد المستضعفين من المؤمنين، وبما أن مهمة الشراة صعبة ومسلكهم مخوف بالخطر، فإما نصر مؤزر وإما موت شريف؛ اشترط لكل من يسلكه من الشراة شروط قاسية، لا يقبلها إلا الفدائيون الشجعان، الذين يضحون بحياتهم من أجل نصر دين الله، وردع الظلم وقمعه من عقر داره، فلا يحل للشراة أن ينسحبوا من الميدان؛ لأن مهمتهم تقتضي النصر أو الموت دون ذلك، ولا يعودوا إلى ديارهم إلا لضرورة ملحة، كالتزود للحرب مثلا، ويقصروا الصلاة في بيوتهم، ويتمونها في أماكن رباطهم، ولا يحل فوق كل هذا أن يروعوا الآمنين، أو يهاجموا على المسلمين، وهذا إن دل، فإنما يدل على عدل هذا الفداء في سبيل الإسلام، فهو ليس كالتطرف الممقوت، الذي يأتي على الأخضر واليابس فيحرقه، ويأتي على الحرث والنسل فيهلكه، إنه بالفعل فداء عادل في دين الله.

فإن تعذر حتى الفداء، فلم يوجد في الأمة من يثور لنصرتها، وساد الضعف في المسلمين، وسيطر أعداء الله، وصارت أسباب القوة والغلبة في كفتهم، عندئذ يسلكون مسلك الكتمان، فيؤسسون لهم مؤسسات وجمعيات تقوم على ثقيف الناس، وتدريسهم أمور دينهم، وتقويتهم وانتشالهم من ضعفهم، واعداد جيل من أهل الدعوة والاصلاح والعلم والدراية، جيل تكون لديه أسباب القوة، وأهمها العلم والمال، ولا تكون علاقتهم بالظلمة المسيطرين إلا في أضيق طريق؛ لئلا يعاونوهم في ظلمهم وفسادهم، بل يقفون معهم فيما يكون لصالح المسلمين وحسب، وهم مع كل هذا، يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر، ويستغلون جميع الفرص المتاحة

لهم لرد الناس إلى صوابهم، سواء من الظلمة المستبدين، أو من المسلمين الغافلين، حتى يجعل الله أسباب القوة والغلبة في كفة المؤمنين، ويظهرهم على أعدائهم، وهذا هو أعظم هدف من الكتمان.^٤

إن الظهور والدفاع والشرء والكتمان: هي كفات لتوازن أحوال المسلمين، فقد يأتي حال من القوة والمكنة مع المؤمنين، ففي هذه الحال لا يعذرون عن الظهور، وقد يأتي حال يكون الظهور فيه أشبه بالارتقاء إلى التهلكة، عندها لا يلزمون به، وإنما يتخيرون المسلك الذي يحفظ أرواحهم وأموالهم قدر المستطاع، وقد يأتي قائل ويسأل عن الشرء! أليس هو القاء بالنفس إلى التهلكة؟ أقول لا! لأن الشرء أصلا لا يقوم به كل المؤمنين ويعرضون أنفسهم جميعا للخطر؛ إنما تقوم به مجموعة منهم عن ضرورة ملحة، وهم فوق ذلك لا يرتمون في العدو هكذا، بل تحري حربهم وفق تخطيط وحكمة ودراية، وليس هذا انتحارا، بل فداء في سبيل الله. ونرى واقع بعض المسلمين اليوم وللأسف الشديد، أن جماعة منهم يدعون الفداء، وهم بعيدون كل البعد عنه، يقتلون المحارب والمسلم، وينهبون الأموال والثروات، ويروعون الآمنين، ويهدمون البيوت فوق الأطفال والنساء، ويفجرون أنفسهم في المباني والشوارع المزدهمة بأصناف البشر، ثم يقولون هذا فداء في سبيل الله! ليتهم عرفوا معنى الفداء الحقيقي المشروع! ليتهم قرأوا واطلعوا وتأثروا بمنهج الاباضية في شرائهم وفدائهم في سبيل الله! ليتهم رأوا ما فعله أبي بلال -مرداس بن حدير- وخلفه أبي حمزة الشاري كيف شروا الحياة الدنيا بالآخرة! ((فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما)). وفي الصفحات التالية تفصيل لهذا التمهيد، ونسأل الله التوفيق والسداد والتأييد.

^٤ انظر: علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، مراجعة سليمان بابزبز، ط٣، مكتبة الضامري، السيب، سلطنة عمان، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م، ص ٧٦-٧٧-٧٨.

^٥ (النساء: ٨٩).

المبحث الأول: الظهور

المطلب الأول: تعريف الظهور، ومشروعيته، وشروطه، وأهدافه.

أولاً: تعريف الظهور

- ١ - لغة: البدو بعد الخفاء، وهي من " ظهر الشيء بالفتح ظهوراً: تبين. وأظهرت الشيء: بينته. والظهور: بدو الشيء الخفي. يقال: أظهرني الله على ما سرق مني أي أطلعني عليه."^٦
- ٢ - في اصطلاح الإباضية: قيام حكومة إباضية وفقاً لتعاليم المذهب الإباضي،^٧ تسير على منهج الشرع الإسلامي، فتنفذ أحكام الله، وتقيم الحدود، وتصون الحقوق، وترد المظالم وتحفظ الثغور وتحمل دعوة الإسلام إلى بلاد الكفر.^٨

وهي أكمل المراحل وأسمأها، وهي التي يطمح، ويأمل الإباضية أن تتحقق لهم، خاصة بعد مرورهم بالمراحل التي دوّنها: كتمان، ودفاع، وشراء. فهي إمامة عظيمة؛ من خلالها يكون المجتمع الإباضي صاحب سيادة كاملة، وسلطة مستقلة تامة؛ تنفذ الأحكام الشرعية، وتقيم الحدود وترد الحقوق، وتأمّر وتنهى، وتحمل الدعوة للآخرين، وتحافظ على حياة المسلمين، وتحكم بحكم خالص كامل بما أنزل الله ولا تخضع لأي سلطة خارجية. ومن أبرز مواطنها: إمامة طالب الحق -عبدالله بن يحيى الكندي- في اليمن، وإمامة أبي الخطاب المعافري، والدولة الرسمية في المغرب، والإمامات العمانية بمختلف الفترات التاريخية: (إمامة الجلندي بن مسعود، الوارث بن كعب، غسان بن عبدالله، المهنا بن جيفر، الصلت بن مالك، الدولة اليعربية، سالم بن راشد الخروصي، محمد بن عبدالله الخليلي).

^٦ ابن منظور محمد بن مكرم: لسان العرب، ط ١، دار صادر- بيروت، ١٤١٤هـ، ج ٤، ص ٥٢٧، مادة: "ظهر".

^٧ هاشم مهدي طالب: نشأة الحركة الإباضية بالمشرق، ط ٢، دار الحكمة-لندن، ٢٠١٣م، ص ٢٧٠.

^٨ معمر علي يحيى: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ط ٣، جمعية التراث-القرارة-غرداية الجزائر، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، ص ٢٥٩.

ثانيا: مشروعية الظهور

الظهور مشروع بالكتاب والسنة والإجماع، فمن الكتاب العزيز قول الله تعالى: ((ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون))^٩، ووجه الدلالة بأن العزة إنما تكون بظهور المؤمنين على أعدائهم. وقوله تعالى: ((ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون))^١، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر ما يتجلى في الأمة القوية الظاهرة، فكما نعلم بأن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر درجات: أعلاها منزلة التغيير باليد، ولا تكون اليد إلا مع سلطة قائمة ظاهرة، يستبشر منها الطائع، ويرهب منها العاصي، وأدناها النكران بالقلب وذلك أضعف الإيمان. ومن الأدلة قوله تعالى: ((الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور))^١ قال: (مكناهم)، والتمكين فيه معنى الظهور والقوة والغلبة. وقال عز من قائل: ((إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا)) فقد أمر الله عز وجل بأن تكون هناك إمارة في الناس، تؤدي الأمانة إلى أهلها بها، ويحكم بين الناس بالعدل بسلطتها؛ وهذه إشارة إلى ضرورة وجود دولة مسلمة عادلة تقوم بذلك، وهو ما يسميه الإباضية بالظهور.

ومن السنة أدلة كثيرة منها: قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "تخيروا لإمامتكم وتخيروا لنطفكم"^١ ويكفينا تطبيقه صلى الله عليه وسلم، وظهوره في المدينة المنورة بعد الهجرة المباركة، وإعلانه قيام الدولة المسلمة هناك، وحربه لكل من وقف ضد الدولة يمنع عنها طريق دعوتها إلى الله، ومن بعده جاء أبو بكر الصديق، وأعلن أول خلافة راشدة، وحارب المرتدين ومانعي الزكاة، ثم عمر بن الخطاب أقام الحق وأمر بالعدل وفتح الأمصار، وكان داعيا إلى الله ورسوله

^٩ (المنافقون: ١١)

^١ (آل عمران: ١٠٤)

^١ (الحج: ٤١)

^١ الفراهيدي الربيع بن حبيب، الجامع الصحيح، ص ٢٠٤، رواه جابر عن ابن عباس. انظر: عدون جهلان، الفكر السياسي، مرجع سابق، ص ١٦٥.

وقد سار الإباضية على نهجهم، ولم يغيروا قيد أنملة، وأقاموا إمامات ظهور في مختلف الأعصار وفي بلدان متعددة، وقد أخذوا مشروعيتها ومنهجها من سلفهم الصالح -رضوان الله عليهم-؛ فقد كانوا ظاهرين بالحق يأمرهم بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويجاهدون في سبيل الله ويطيعون الله ورسوله.^١

ثالثاً: شروط الظهور

يرى الإباضية وجوب إقامة دولة مسلمة عادلة، تعمل بالكتاب والسنة، وتقيم العدل، وتمنع الظلم، وتسير بالأمة نحو صلاح الدنيا والآخرة، بعكس ما ادعاه بعض كتاب المقالات من أن الإباضية لا يرون وجوب الإمامة، وهذه إشاعة أخذت من غير مصادرها الحقيقية. يقول الإمام السالمي: "الإمامة فرض بالكتاب والسنة والإجماع والاستدلال"^١ فالإباضية يرون وجوب الإمامة إلا أنهم يشترطون لها شروطاً إن توفرت أقيمت الدولة، وإن عدمت لأي ظروف خاصة لجأوا إلى مسالك أخرى تغنيهم من أن يتحملوا شيئاً فوق طاقتهم، أو أن يتسببوا في فتنة أكبر من التي قبلها إن هم خاضوا في إقامة هذه الدولة من غير اكتمال شروطها. يقول علي يحيى معمر: "الإباضية يرون أن من واجب المسلمين أن يقيموا دولة عادلة تسير على منهج الشرع الاسلامي، فتنفذ أحكام الله، وتقيم الحدود، وتصون الحقوق، وترد المظالم، وتحفظ الثغور، وتحمل دعوة الاسلام إلى بلاد الكفر، فإذا كانت الدولة القائمة جائرة، وكان في إمكان الأمة المسلمة تغييرها بدولة عادلة دون إحداث فتن أكبر تضر بالمسلمين، فإنهم ينبغي لهم تغييرها، أما إذا كان ذلك لا يتسنى إلا بفتن وأضرار، فإن البقاء مع الدولة الجائرة ومناصرتها في حفظ الثغور ومحاربة أعداء الإسلام، وحفظ الحقوق، والقيام بما هو من مصالح المسلمين وإعزاز كلمتهم - أؤكد وأوجب - ولا ينبغي هدم حكم قائم إلا إذا تأكدت الاستطاعة للقيام بحكم خير منه دون حدوث ما يخشى على المسلمين أو يلحق بهم أضرار تفوق ما هم عليه من أضرار"^١.

^١ انظر: عدون جهلان، الفكر السياسي، مرجع سابق، ص ١٧٩.

^١ علي يحيى: الإباضية بين الفرق الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

^١ المرجع نفسه، ص ٢٥٩.

إذن فالإباضية يتخرجون ولا يشجعون الظهور على حكم قائم يقوم بكثير من مصالح المسلمين ولو كان فيه شيء من الجور وبدل هذا الحكم منعدم؛ أي أن شروط ظهور دولة عادلة خالصة تحل محل هذا الحكم غير متوفرة؛ وذاك مخافة الوقوع في ضرر أكبر من الأول ومن الأصول العمل بسد الذرائع ما أمكن. وهذا على عكس ما أشيع عنهم بأنهم يوجبون الخروج على الحكم الجائر ولو بالسيف. وأصل هذا الزعم إنما نقلوه من مقولة أبي الحسن الأشعري: "الإباضية لا ترى اعتراض الناس بالسيف، ولكنهم يرون إزالة أئمة الجور، ومنعهم من أن يكونوا أئمة بأي شيء قدروا عليه، بالسيف أو بغيره" ^١. ويكفي هنا حجة بطلان هذا الزعم ما قاله قطب الأئمة عن رأي الإباضية في هذه المسألة: "ونحن بعد لا نقول بالخروج على سلاطين الجور الموحدين، ومن نسب إلينا وجوب الخروج فقد جهل مذهبنا" ^١.

وهذا لا يعني بحال الخنوع والاستسلام للظلم، أو أن يطاعوا في معصية الله بل يرى الإباضية أن يطاعوا فيما لا يكون معصية، والوقوف معهم فيما يخدم المصالح العامة وخدمة البلاد كالصحة والتعليم والصناعة، وأن يمسكوا بأيديهم ويمنعوهم من الظلم قدر الطاقة والاستطاعة. وخلاصة الرأي في هذه القضية: "يجب على الأمة المسلمة أن تقيم دولة عادلة فإذا كانت الدولة القائمة جائزة جاز البقاء تحت حكمهم وتجب طاعتها في جميع ما لا يخالف أحكام الإسلام على أنه ينبغي للمسلمين أن لا يستنيموا على الظلم وإنما ينبغي لهم أن يحاولوا تغيير الحكم إذا كان ذلك لا يسبب في إحداث أضرار جسيمة بالأمة هذا من حيث العمل، أما من حيث النقد أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهذا ما لا يجوز أن يتوقف أو يسكت عنه مسلم ^٨ حريص على إسلامه" ^١.

وشروط إمامة الظهور لو تكلمنا عنها في نقاط فإنها تكون كالتالي:

١ - أن يكون أهل الدعوة في حال قوة ومنعة ماديا ومعنويا، عددا وعتادا، علما ودراية في أمور الدين والدنيا، وأن يغلب على ظنهم بأنهم يغلبوا أهل الباطل والبغي.

^١ علي يحيى معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

^١ المرجع نفسه.

^١ المرجع نفسه ص ٢٦٠.

٢- أن يكون عددهم على الأقل بنصف عدد العدو تأسيا بالقرآن الكريم، يقول الله تبارك وتعالى: ((الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين))^١

٣- أن يكون معهم على الأقل ستة علماء بأصول الدين والفقه، أصحاب ورع وتقوى وزهد، ثقة عدول.

وقد لخص القطب محمد أطفيش^٢ شروط الظهور في كلمة " الكفاية" حينما قال: "ما يكفي من السلاح وكراع وعلم ومال"^٢.

فالسلاح: هو العدة العسكرية التي تستعمل لحرب الأعداء، وبها يكون قوة الجيش: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة"،^٢ وقد كانت سابقا السيوف والرماح والدروع والسهام والخيول، ثم تطورت وزاد فيها المنجنيق، ثم دخلت المدافع وصارت تتطور شيئا فشيئا إلى أن صارت في يومنا الحاضر: الطائرات والصواريخ وشتى أنواع الأسلحة النارية من رشاشات وقنابل ومدفعايات وبنادق متطورة، بل وصلت إلى أقصى التطور فهناك أسلحة في يومنا هذا تدمر مدنا بأكملها إلا أنها ممنوعة دوليا؛ لأنها تأتي على الأخضر واليابس، فتهلكه جميعا، وتتسبب في فناء النسل الإنساني، وهي ما يطلق عليها: "بالأسلحة الذرية" ويرى الإباضية ضرورة أن يكون للدولة

^١ الأنفال ٦٦: ص ١٨٥.

^٢ هو الشيخ العلامة قطب الأئمة: محمد بن يوسف بن عيسى أطفيش، ولد سنة ١٢٣٦هـ / ١٨١٨م، حفظ القرآن الكريم وهو في سن الثامنة، وكرس جهده منذ الصغر في طلب العلم حتى نبغ فيه وهو في سن حديث، وأصبح من كبار علماء عصره، له مؤلفات كثيرة في مختلف فنون العلم وصل عددها ٣٢٠ مؤلفا منها: هيمان الزاد، تيسير التفسير، السيرة الجامعة من المعجزات اللامعة، شرح مختصر العدل والإنصاف، شرح النيل وشفاء العليل، شرح عقيدة التوحيد، كشف الغمة في شرح لامية ابن النظر وغيرها الكثير.. توفي رحمه الله بعد عمر قضاه في العلم والتأليف والتدريس والدعوة إلى الله سنة ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م. انظر: عدون جهلان، الفكر السياسي عند الإباضية، ط٣، مكتبة الضامري، السيب، سلطنة عمان، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م، ص ١٢٣.

^٢ أطفيش محمد بن يوسف، شرح عقيدة التوحيد، ص ٤٣٦. انظر: عدون جهلان، الفكر السياسي، مرجع سابق، ص ١٧٢.

^٢ (الأنفال: ٦٠)

الظاهرة سلاحا يدافع به عن الوطن، وعن كل من ينتمي إليه إلا أنهم كذلك يجرمون استعمال الأسلحة الذرية الفتاكة؛ وبذلك يؤيدون المنع الدولي لها لما لها من أضرار تؤدي إلى فناء البشرية.

والكراع: كل ما تحتاجه الدولة من مؤونة وزاد لتمويل الجيش من مشرب ومأكل وملبس ومركب، وكان السابقون يعتمدون اعتمادا مباشرا على الحيوان كالإبل والمواشي والخيول والبغال والحمير؛ ولذا صار توفرها شرطا لإقامة الإمامة، أما ما يخص عصرنا اليوم فهناك من الآلات ما تعد كراعا للدولة كالتائرات والقطارات والسيارات في المركب مثلا، وغيرها من الآلات التي صارت بديلا أو على أقل تقدير خففت من الاعتماد المباشر على الكراع الذي كان في الماضي. أما العلم: فهو القوة الضاربة والمحرك الأساس الذي لا تقوم الدولة إلا به، يحمله أصحاب العقول النيرة والأفكار البصيرة من علماء الشريعة والحقيقة، فيسيرون بالأمة نحو عزتها وتمكينها في الدنيا، وإلى فوزها وفلاحها في الآخرة. وما انتقاد العالم اليوم نحو الدول الغربية إلا بفضل العلم؛ وهذا علم الدنيا، فكيف لو جمعت هذه الدول مع تطورها المادي روح الشريعة الإسلامية؟!.

والمال: اقتصاد الدولة الذي لا بد منه، ولا معنى لدولة تقوم بلا مال؛ إذ من الضرورة بمكان أن يكون للدولة اقتصاد نشيط، يدر لها من الأموال ما تستطيع به أن تأسس أركان دولتها، وتنفق به على من هم تحت رايها وحكمها؛ حتى يكونوا عوناً وسندا لبنائها والدفاع عنها. ومن مصادر الاقتصاد: الزكوات والصدقات والأوقاف والجزية والاستثمارات بشتى أنواعها، أما اليوم فصارت أكثر سعة وتنوعا، ولكل زمن مصادر دخل مختلفة. ويرى المسلمون ضرورة وجود مصادر دخل عديدة للدولة لتقوية اقتصادها على أن تكون هذه المصادر حلالا طيبا.

هذه خلاصة القوى الأربع: (السلاح والكراع والعلم والمال)، وهي من الشروط المهمة للظهور وإقامة الدولة كما ذكرها القطب.

أما عن شروط الإمام الخاصة:

فقد كثر فيها الحديث والخلاف بين الفرق الإسلامية؛ فعند الإباضية يرى الحضرمي أنها أحد عشر شرطاً: "ولا تتم الإمامة لأحد إلا بوجود إحدى عشر خصلة: أحدها: أن يكون رجلاً بالغاً حراً عاقلاً. الثاني: أن يكون ليس بأعمى ولا أصم. الثالث: أن يكون ليس بأخرص^٢. الرابع: فصيحاً بالعربية. الخامس: صحيحاً ليس بزمناً، ولا مقطوع اليدين ولا الرجلين، قلته قياساً. السادس: أن يكون من أهل العلم والورع في الدين. السابع: أن يعقد له من أهل الولاية ستة رجال أحراراً بالغين عاقلين من أفضل المسلمين في العلم والورع في الدين ليس فيهم أعمى فصاعداً. الثامن: أن يكون أهل دعوة المسلمين عليهم عقد الإمامة، لا يكون في ذلك شرط. التاسع: أن لا يعقدوا لأحد قبله من المسلمين إلا أن يكون بينه بحر فإن لم يكن بينهما بحر كان داعية الذي قبله وليس بإمام. العاشر: أن لا يعقدوا له ولغيره في وقت واحد ولا يدري أيهما من قبل وليس بينهما بحر فليس الواحد منهما إمامة، ويرجع الأمر شورى بين المسلمين. الحادي عشر: أن يكون ممن لم يقم عليه أحد من قطع ولا جلد"^٣، ويقول قطب الأئمة: "أن يكون مجتهداً في الأصول والفروع ليقوم بأمر الدين والدنيا، متمكناً من إقامة الحجة وإزالة الشبهة وتصحيح العقائد".^٤ ولم يشترط الإباضية أن يكون الإمام من عرق أو قبيلة معينة كما يشترط الشيعة أن يكون من آل البيت واشترطت فرق السنة أن يكون قرشياً، بل الإمامة عند الإباضية حق مشاع لدى الجميع، يقول علي يحيى معمر: "لم يشترط الإباضية القرشية لصحة الخلافة وإنما تكون مرجحاً- إن وجدت- وتساوت الكفاءات الأخرى"^٥.

وإذا ما تمعنا في الشروط التي ذكرها أعلام الإباضية فيمكن أن نستخلصها ونجعلها في: العلم، والاجتهاد، والعدل، والورع، والنزاهة، والتقوى، والشجاعة، والسلامة من جميع العاهات البدنية كالصمم والخرس والعمى، وجميع ما يشوب البدن من علل تعوق أداء مهام الإمامة كما

^٢ هكذا وردت في النص ولعلها تصحيف في النقل والصحيح (أخرس). انظر: مهدي طالب هاشم، الحركة الإباضية، مرجع سابق، ص ٢٧٤.

^٣ مختصر الخصال، ورقة ٧٠ ب. انظر: مهدي، الحركة الإباضية، مرجع سابق، ص ٢٧٥.

^٤ أطفيش، شرح عقيدة التوحيد، ص ٤٤١. انظر: عدون جهلان: الفكر السياسي، مرجع سابق، ص ٢١٣.

^٥ علي يحيى معمر، الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص ٤٦٤. انظر: عدون جهلان، الفكر السياسي، مرجع سابق، ص ٢٠١٨.

ينبغي أو تعييه وتجعل الناس ينظرون إليه بازدراء، كذلك ينبغي أن يتسم بالكرم وسعة الصدر والسعي في مصالح العباد، وألا يكون إمامين في مصر واحد إلا إن فصل بينهما بحر.

رابعاً: أهداف الظهور ودوافعه

إن وراء الظهور يحصل كل خير ومغنم، كيف لا والله تعالى يقول: ((الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور))^٢ فالتمكن في الأرض بأن يظهر الله المسلمين على أعدائهم؛ فيكونوا في قوة من أمرهم في دينهم ودنياهم، ويجعل سبيل الخيرات مفتوحاً لهم، ويجعل إقامة الشعائر والعبادات ميسراً دون مضايقات عليهم؛ لأنهم في دولة قوية تحميهم من تكالب الأعداء عليهم، فيعبدوا الله كما أمرهم من إقامة للصلاة وإيتاء للزكاة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر بحرية وأمان، كذلك بالظهور تقام الحدود التي كانت معطلة قبل الظهور، وهي من أساسيات الشريعة، وتؤخذ الصدقات من المسلمين ويتم توزيعها لمستحقيها، وتؤخذ الجزية من أهل الكتاب من هم تحت حماية و ضمان الدولة، ويقاوم المشركون الذين يكيدون بالمسلمين في مختلف البقاع ويمنعون الدعوة من أن تصل إليهم، والحكم في سائر المعاملات بما أنزل الله، وإيصال الأفكار السليمة لعقول المسلمين لتوحيد صفهم ولم شملهم كالدعوة بالمساواة والعدل والشورى. وهذه الأشياء لا تحصل كما ينبغي وقد ينعدم بعضها إن لم تكن هناك دولة ظاهرة، فمن منطلق هذه الأهداف يسعى المسلمون دائماً ويطمحون لإقامة دولة عادلة ظاهرة، تحكم بكتاب الله وسنة رسوله؛ حتى تنشر نورها في بقاع الأرض ما شاء الله أن تنشر، فتحقق بذلك أعظم هدف من وراء الظهور وهو " الدعوة إلى الله ورسوله"، وهو ما سعى إليه الإباضية من وراء ظهورهم في مختلف الأزمنة.

يقول الشماخي: "الظهور هو الأصل المأمور به وعليه توفي صلى الله عليه وسلم لأن الحدود لا تتم إلا معه من قطع يد سارق أو محارب أو جلد بكر أو رجم المحصن... وما أشبه أو عند سائر الأحكام من أخذ الصدقة، وقتال المشركين... وأخذ الجزية من أهل الكتاب وأخذ أموال

^٢ (الحج: ٤١)

المشركين، وقسمة ذلك كما أمر الله تعالى وغير ذلك من الأحكام كما فعل بعد الرسول، أبو بكر وعمر وعبدالله بن يحيى الكندي والجلندي بن مسعود والإمام وارث بن كعب وغسان بن عبدالله وعبدالمملك بن حميد والمهنا بن جيفر والصلت بن مالك... وأئمة المغرب كأبي الخطاب المعافري -بفتح الميم- والإمام عبدالرحمن ومن بعده ذريته^٢.

^٢ الشماخي، شرح مقدمة التوحيد، ورقة ١٦ أ. انظر: مهدي طالب هاشم، الحركة الإباضية، مرجع سابق، ص ٢٧١.

المطلب الثاني: كيفية تنصيب الإمام

التنصيب: هو اجتماع العلماء والزعماء الذين يمثلون أهل الحل والعقد؛ لاختيار الإمام الجديد للأمة المسلمة بعد توفر الشروط العامة والخاصة، وعقد البيعة عليه والصفقة له، ثم الاحتفال بعد ذلك بمناسبة هذا العهد الجديد.

وهو أمران:

١- الترشيح:

ويكون فيه اجتماع أهل الحل والعقد؛ لاختيار الإمام المناسب بعد تحقق شروط الإمامة العامة وشروط الإمام المختار الخاصة، سواء بيعة بعد وفاة الإمام السابق مثل: بيعة الإمام محمد بن عبدالله الخليلي بعد استشهاد الإمام سالم بن راشد الخروصي. أو شغور منصبه بسبب العزل كما انزل أبو بكر بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبدالرحمن الرستمي، وبويع عوضا عنه أخوه محمد أبو اليقظان (٢٤١هـ - ٢٨١هـ). أو بيعة أولى لقيام الدولة الإباضية في مصر من الأمصار كبيعة عبدالرحمن بن رستم في تاهرت.

الطريقة: أن يجتمع مجلس الشورى الذين هم من قادات العلم والسياسة، ويختاروا اثنين فأكثر بعضهم يذكر بأنه من (اثنين إلى ستة أشخاص) يصلحون للإمامة، يقول قطب الأئمة: "وإنما جعلت لستة وتعقد لواحد، ويبقى الخمسة وهم كالحجة لغيرهم، وقيل أن أقل ما يعقد له اثنان؛ لأن الإمامة لا تصح إلا عن مشورة وتراض من الخاصة وهم الحجة، فإذا وقع التراضي به من الخاصة فهو إمام" ^٢ ثم يتشاورون فيما بينهم أيهم الأجدر بهذه المهمة، والأقدر على حمل هذه الأمانة بكل نزاهة وعدل وإنصاف، فإذا اجتمعوا على واحد كان هو الإمام، وإن تخالفت الآراء يتم اختيار من وقع عليه رأي الأغلب.

^٢ عدون جهلان، الفكر السياسي عند الإباضية، مرجع سابق، ص ٢٢٤.

أو يكون عن طريق الاستخلاف: وهو أن يحدد الإمام بنفسه ويرشح أشخاصا للإمامة القادمة، ثم يجتمع هؤلاء المرشحون ويختارون فيما بينهم الأولى بالإمامة، ويعينهم على ذلك أهل الحل والعقد المتمثل بمجلس الشورى؛ بحيث يكون دور المجلس هنا الإشراف والتأييد والفصل في الإمام الذي تجتمع عليه الكلمة. أو يختار الإمام واحدا يراه الأجدر، فيستشير الناس على مبايعته بعد موته؛ لأنه الأولى بها من غيره كما حدث ذلك لعمر بن الخطاب حينما اختاره أبو بكر وشاور الناس لمبايعته، فاستحسنوه ثم بايعوه مباشرة بعد وفاة أبي بكر، وحدث مثل هذا كذلك للإمام أبي الخطاب بن السمع المعافري؛ فقد اختاره أبو عبيدة بنفسه، وأيده بعد ذلك زملاؤه وقدموه.

إذن فهذه الطرق كلها من الشورى المعمول بها عند الإباضية، وإنما لكل زمن ما تناسبه، وهذا على حسب الظروف والأوضاع السياسية والاجتماعية الشائعة في تلك الفترة أي فترة الترشيح للإمامة.

٢- البيعة:

وهي المرحلة الثانية من مراحل التنصيب فبعد اختيار الإمام المناسب، يجتمع الخاصة والعامة لمبايعته أي تأييده وتأكيد الرضا به إماما عليهم يقوم بطاعة الله ورسوله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويجاهد في سبيل الله، ولا يخشى في الله لومة لائم، ويقومون هم بواجب طاعته فيما يأمرهم به من أمر دينهم ودنياهم دون تخلف مالم يبلغ عليهم أو يخرج عن طاعة الله ورسوله. وتكون صيغة المبايعة عند الإباضية كما يذكرها الشيخ محمد أطفيش في قوله: "إذا قام ممثل أهل الشورى لإعلان بيعة الإمام يقول: "قد بايعت فلان بن فلان على طاعة الله ورسوله، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله...^٣"، ثم يرد الإمام بعد ذلك

^٣ عدون جهلان، الفكر السياسي عند الإباضية، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

بقوله: "قد بايعني إماما على موضع كذا" ^٣ ومن رضى بذلك على طاعة الله ورسوله (...).
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... " ^٣.

وبعد التعاقد بين الإمام والجماعة ورضا الجميع بهذا التنصيب يتقدم أعلم الناس، ويمسك
بيمين الإمام ويقول له: "قد بايعناك الله ورسوله..."، فيجيبه الإمام: "نعم" وهذا يسمى
"الصفقة" ثم يفعل الثاني والثالث وما أكثر فهو أفضل " ^٣ ثم بعد ذلك توضع العمامة على
رأس الإمام والخاتم على إصبعه، ويرفع العلم بحضرته. وكل هذه الأشياء تعد مراسم للتنصيب؛
أدائها يعطي حافزا ودافعا يشعر الإمام بحجم الأمانة التي تخولها فيجد ويجتهد في العمل بما
مكنه الله من طاقة؛ ليكون أهلا لما ولي إياه، ويعطي كذلك تفاعلا وشعبية للرعية؛ فيولد عندهم
روح المحبة للإمام، فيحترم ويقدر ويناصر ويأزر.

بعدها يقوم أحد الخطباء المصاقيع أصحاب الأصوات الجهورية، ويخطب أمام جمع المسلمين
بأن الإمام الفلاني تم تنصيبه على سنة الله ورسوله، ويذكرهم بوجوب طاعته، وضرورة توحيد
الكلمة، والسعي معه في خدمة الأمة الإسلامية بما يصلحها، ويرفع من شأنها، ويجعلها في
مقدمة الأمم وصدارتها، ويحذرهم من الفرقة والشتات والضلال.

وبهذا يتم العقد والصفقة، وتنشأ علاقة الود والوثام بين الجماعة والإمام، ويتمتع الإمام بعدها
بسلطة نافذة في جماعته؛ يطاع في أي أمر يصدره في حدود ما أمر به الشرع، وعلى الرعية
طاعته والانصياع لأمره وعدم مخالفته ما أطاع الله ورسوله، فإن عصى الله وأحدث في الدين ما
لا يرضي الله عندها لا طاعة لمخلوق في معصية الله، ويصير أمر عزله أو استنابته موكول لأهل
الحل والعقد كما يلي:

^٣ هنا يذكر المصر الذي نصب فيه إماما وتأريخ ذاك اليوم.

^٣ المرجع نفسه.

^٣ أطفيش محمد: شرح النيل، ج ١٤، ص ٣١٧ انظر: عدون جهلان: الفكر السياسي عند الإباضية، مرجع سابق،

ص ٢٢٧.

متى يعزل الإمام؟

يرى الإباضية بجواز عزل الإمام عن الإمامة وتنصيب غيره، إن أخل بشيء من شروط التنصيب التي عاهدتهم بأن يلتزمها، وحكم بغير ما أنزل الله، واقتترف شيئاً من الموبقات كشرب الخمر، والزنا أو أنه ترك الصلاة أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، أو أنه بغى عليهم وأكل أموالهم. كل هذه الأشياء تعتبر من موجبات العزل، إلا أنهم يرون كذلك نصحه وإرشاده واستتابته قبل عزله، خاصة إن كان له نفوذ وسيطرة، وخيف الفتنة من وراء عزله. وقد سبق الحديث عن جواز البقاء تحت حكم جائر، بشرط عدم الطاعة له في المعصية والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن تمادى في الظلم وأصر على موقفه، وكانت الظروف تسمح لعزله وتنصيب غيره كأن تكون القوة والمنعة والكلمة مع أهل الحل والعقد؛ فعندها يكون الموقف جاداً ويعزل في الحال. ومن النصوص التي استدلت بها الإباضية في قضية جواز عزل الإمام الباغي قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيت أمتي تحاب الظالم أن تقول أنت ظالم فقد تودع منهم"،^٤ وحديث إنكار المنكر قال صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه" وذلك أضعف الإيمان^٣، وجواز عزل الإمام يراه الإباضية من باب القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن وجدت القوة وضمن أمر العزل كان التغيير باليد فيعزل، وإن قلت ولم يضمن الأمر نصح باللسان، فإن عدمت فلا أقل من نكران القلب.

ومن موجبات العزل كذلك: أن يطرأ على الإمام عوارض خلقية -بفتح الخاء- لا حول للإمام فيها ولا قوة؛ كأن يضعف جسده فيكون كسيحاً، فلا يقوى على أداء مهامه كما يجب، أو يطرأ على عقله تغيير كمرض الزهايمر مثلاً بسبب كبر السن؛ فينسى كثيراً، أو يصاب بعمى،

^٣ رواه أحمد والطبراني والحكم والبيهقي في شعبه. محمد أطفيش جامع الشمل في حديث خير الرسل، ص ٢٣٥٠.

انظر: عدون جهلان: الفكر السياسي عند الإباضية، مرجع سابق، ص ٢٣٢.

^٤ عز الدين بليق، منهاج الصالحين، ص ٤١٠، الحديث رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري. انظر: المرجع نفسه،

ص ٢٣٢.

أو بكم، أو أي مرض يحول دون أداء واجبات الإمامة كما يجب؛ هنا يرى البعض بأن الأولى أن يعزل على هذا الحال، وهناك قول آخر بأنه: لا تعقد إمامة إلا بعد موت الإمام.

ولعل إن وجد نائب عن الإمام يقوم بالواجبات عوضاً عنه، ولم يكن لمرضه أثر في الرعاية، ولم يسبب أي اضطراب ومشكلات في الدولة؛ يكون مسوغاً لبقائه في الحكم، أما إن رأى الإمام بأنه يريد التنازل لعلمه بحاله وحفاظاً على الاستقرار، فالعزل هنا أفضل وأولى.

المطلب الرابع: من مواطن الظهور وأثرها

١ - الجلندی بن مسعود

قبل الامامة

كانت الأوضاع قبل إمارة الجلندی بن مسعود في الخارج والداخل مضطربة غير مستقرة لأحد، ففي الخارج هناك الدولة الأموية التي لم يتبق منها غير رmqها الأخير، وهي تجاهه أكبر خطر يهدد حياتها: وهو ظهور الدولة العباسية وزحفها نحو تخوم مملكة الشام في الوقت الذي صرف الأمويون فيه أقوى فرسانهم وأفضل عدتهم في حرب أبي حمزة الشاري في الحجاز وطالب الحق في اليمن. وفي الداخل هناك بعض الجبابرة وزعماء القبائل يفرضون نفوذهم بالقوة للحظوة بالملك والجاه والمال، خصوصا من كانوا على اتصال بالعدو الخارجي. وفي وسط هذه الظروف جميعا كان الناس يتربون بأمل زوال الدولة الأموية؛ لما عانوه من استبداد وظلم وقمع، وحلول دولة عادلة يضع المؤمنون أملهم بالعيش السعيد فيها، تحفظ لهم كرامتهم، وتقودهم إلى الله ورسوله، ويشعرون فيها بالعدل والأمن والاطمئنان، ولكن الدولة البديلة القادمة لم تكن بأفضل حال من الدولة الأموية، فكلا الدولتين كانتا على وتيرة واحدة في نظام الحكم: ملك عضوض وراثي، فقد لأهم شرطين في نظام الحكم: هما الشورى، والاختيار، وقد انتصر السفاح العباسي على الدولة الأموية بالفعل، وانقلبت الموازين، وقد ولى أخاه أبا جعفر المنصور على العراق، وقام الأخير بتولية جناح بن عبادة الهنائي على عمان، ثم عزله وولى ابنه محمد بن جناح الهنائي، وكان لنا مع قومه من أهل عمان، ووافقهم على ما يريدون، فرجعت الولاية لهم فهم من قبل أهل استقلال، حكمهم لا يكون إلا لواحد منهم، وما انصاعوا لحكومة خارجية منذ عهدهم الأول في عمان، منذ مالك بن فهم وحتى آخر حاكم حكم عمان، إلا لفترات استثنائية كان فيها شئ من الضعف الداخلي؛ بسبب الصراعات القبلية، وظهور بعض الخيانات الداخلية، لكنها في العادة لا تدوم طويلا، وسرعان ما يتدارك الخطر وتستعيد الدولة حريتها واستقلاليتها، وهذا ما حدث في أول حكم للعباسيين، فقد قرر أصحاب الحل والعقد أن يستقلوا بالكلية

عن الدولة العباسية التي لا تخدم فكرهم، ولا تصلح شؤونهم، فاليوم وال من عمان، وغدا وال من العراق، والخوف من انقلاب الأحوال، ولذا فضلوا تدارك الأمر من البداية، خاصة بعدما شعروا بالقوة والمكنة والاستقلالية، وقد كتب الله برحمته أن تقوم هذه الامامة المأمولة على يد الجلندی بن مسعود.

تولية الإمام الجلندی بن مسعود

بعد أن تأسس الإمام الجلندی بن مسعود، وأخذ العلم وسياسة الدعوة من الإمام الكبير أبي عبيدة -مسلم بن أبي كريمة التميمي- وبعدهما شارك في بيعة طالب الحق -عبدالله بن يحيى الكندي- واستفاد منه في أمور الامامة والسياسة، وقد كان من قبل شخصية قيادية، فهو حفيد الملك جيفر بن الجلندی، أي أنه: تربي في بيت زعامة، وهذا الأمر الأخير وإن كان لا يعول عليه في شغور منصب الحكم بقدر ما يعول على سمات المرء وحدها دون الاعتبار بآبائه؛ إلا أنه ربما يساعد هذا أحيانا في أن يكسب المرء من آبائه صفات حميدة، وسمات في الشجاعة والقوة والحكمة والارادة تؤهله لمثل هذه المسؤولية العظيمة، يقول تعالى: ((إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين(٣٣) ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم)) ، وهذا ما كان في الجلندی بن مسعود، فهو ابن زعماء، وصاحب علم وتقوى وورع، وذو خبرة ميدانية في المجال السياسي والعسكري، وهذه الخلال هي أقوى مؤهلات تؤهل المرء لمنصب الامامة، ولذا فإن بعد كل هذه الامكانيات الفريدة في الجلندی بن مسعود، لم يتردد الإمام أبو عبيدة في السماح للجلندی بن مسعود في أن يقيم الإمامة في عمان، ولم يتردد العلماء العمانيون في اختياره وتنصيبه إماما عليهم، فتمت البيعة له سنة ١٣٢هـ، وممن بايعه : حملة العلم الأربعة: موسى بن أبي جابر، ومنير بن النير، وبشير بن المنذر، ومحمد بن المعلی .

٧

٢ (آل عمران: ٣٣، ٣٤).

٣ انظر: سالم الرواحي، الإمامة والأئمة في عمان، مكتبة الضامري- السيب- سلطنة عمان، ط ١،

١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، ص ٧٢.

صفاته وسيرته العملية:

كان الإمام من أفضل أئمة عمان، فقد سار بالأمة نحو صلاح الدنيا والآخرة، وانتهج نهج الخلافة الراشدة، ولم يحد عنها طيلة فترة إمامته، إماما عادلا صادقا زاهدا ورعا تقيا، أقام العدل، ومنع الظلم، ورد الحقوق إلى أصحابها، وأخذ الزكاة من أهلها وصرفها لمصارفها، رحيم القلب، لين الجانب، قال عنه العلامة منير بن النير هو والإمام سعيد بن عبدالله القرشي: " لم يأخذوا الصدقة بغير حقها، ولم يضعوها في غير مواضعها، ولم يستحلوها من الناس على غير الأئتمان في الأرض، والحماية والكفاية، والمكافحة عن حريم المسلمين، بل أخذوها بحقها بعد إحكام الأمور التي تعينهم في دين الله، وحفظ الرعية، ثم وضعوها في مواضعها، وقسموها على أهلها بحكم القرآن، فريضة من الله والله عليم حكيم، ثم بلغنا عنهم فيما استقام عليه رأيهم، أن يرفضوا بصدقة البحر إلا ما طاب بأنفس الناس أن يبذلوه لهم، وذلك لما يتخوفونه من الداخل عليهم في سبيل الله إذا لم يحمو، ولا يولون أمرهم، ولا يبعثون في حوائجهم، ولا يستعملون على صدقاتهم وأهل رعيته، ولا يستقصون على أهل ولايتهم إلا أهل الثقة، وأهل العلم والورع والتخرج. المعروف بالفضل، الموصوفون بالخير من أهل البيوتات من قومهم غير سقاط ولا أدعياء ولا متهمين ولا مقترفين " .

٣

٨

أثر إمامة الجلندي بن مسعود:

لم تكن الأوضاع السائدة في عمان قبل مجيء الإمام الجلندي بن مسعود على حال يرتضى، فهناك تسلط من بعض الزعامات على أحوال المسلمين وأموالهم، وتجبر وحكم بالأهواء لا بالسنة والكتاب، ولا ننسى تدخل الأيدي العابثة من الدولة الأموية وبعدها الدولة العباسية، وما لها من أثر في صناعة الجبابة، ودعم بطشهم وتثبيتهم على كراسي الاستبداد، وتأجيج نار الفتنة القبلية، مما جعل الوضع يزداد تأزما. وحينما بويع الإمام بالإمامة عمل جاهدا لاطفاء نار الحمية الجاهلية عند بعض المتسلطين ومن تماوه معهم واستجاب لندائهم، من ذلك: قتله

٢ السالمي، تحفة الأعيان، ج ١، ص ٨٩-٩٠، مرجع سابق. انظر: الرواحي، الامامة والأئمة، مرجع سابق، ص ٧٣.

لجعفر وابنيه: زايد والنظر، وقد كانوا من أقارب الإمام؛ وسبب ذلك: بيعتهم لأعداء الإمامة والتخطيط للانقلاب ضدها، وهذا ما يسمى بالخيانة الكبرى، ولذا قام الإمام بعد مشاورة العلماء بقتلهم، تنفيذا لشرع الله فيهم، وردعا لكل من تسول له نفسه من غيرهم في محاولة الكيد أو نصره العدو على إمامة قامت على الحق وبالحق. ويذكر أن الإمام دمعت عيناه حينما نفذ الحكم في حقهم، فرآه العلماء، فقالوا: أعصية يا جلندى؟ قال لا! ولكنها الرحمة، ثم أنهم رغم ذلك رأوا بأن يقوموا بعزله حتى حين، اختبارا لمعدنه وصدقه، ودرسا للمسلمين فيمن يولون أمرهم، وأنه لا بد للإمام أن يكون قدوة لمن يتولى أمرهم، فلا يصدر منه إلا الحق والعدل، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وأنه لا بد من وجود رقابة من العلماء الربانيين فوق كل حاكم، تثبته في حكمه متى ما كان أهلا في الحكم، وتعزله إن رأت في العزل مصلحته ومصلحة الأمة، هذا على رغم أن الموقف من الإمام لم يكن خطأ إلا أن للعلماء نظرهم الثاقبة في ترسيخ العدالة الكاملة ما دام هناك ذرة لتحقيقها، وأن هذا يبقى درس للجميع ومنهاج ينير طريق من أحب أن يحقق العدل والانصاف في كل شيء، ونحن نجد في محكم التنزيل كيف أن الله أنب الأنبياء والمرسلين! لا لذنوب فعلوها، ولا لأخطاء فادحة اقترفوها؛ ولكن تصفية لجوهرهم الطاهر النقي، وأن هذا ما كان ينبغي منهم أن يحدث لمقامهم الرفيع عند الله، فالله أنب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "عبس وتولى أن جاءه الأعمى"، وكلنا يعلم أن هذا في طبيعة البشر لم يكن خطأ يؤخذ عليه إنسان رأى في أن دعوة الناس إلى الإسلام وهم على الشرك، أولى من الاستجابة لتعليم غيره وهو على الإسلام، فالمشرك أحوج إلى الهداية من المسلم، ثم إن المسلم يمكن أن يؤجل طلبه، لكن المشرك يخشى عليه أن يموت إن تأجلت دعوته فيكون من الهالكين، وهذا ما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم حينما أعرض عن ابن أم مكتوم، وعبس في وجهه حينما أصر على طلبه، أي: طلب من النبي أن يعلمه القرآن، بينما النبي كان منشغلا بسادات قریش يدعوهم إلى الإسلام، فتغير وجهه عليه؛ إلا أن الله بعلمه وحكمته كان يعلم أن الاعراض عن الأعمى وهو يطلب تعليم القرآن ما كان ينبغي أن يحدث من قبل نبي الرحمة، بل إن

^٢ (عبس: ١-٢)

الالتفات إليه والاجابة لطلبه أولى من المشركين؛ كونه يخشى الله وقد جاء ساعيا لطلب العلم، بينما المشركون كانوا في تصد وعناد، وجبروت واستهزاء، ولذا فليس هم أولى بالالتفات. وما أشبه موقف العلماء من الجلندی من موقف القرآن من الأنبياء، فهم ما عزلوه لذنب اقترفه، ولا لجرم فعله، ولكن تأنيبا له منهم بأن يكون أكثر حرصا على الثبات في مثل تلك المواقف، لئلا يتساهل المسلمون في امامته، وينظروا لها من منظر القبلية والعصبية، فقد يفهم أناس أن تلك الدمعات رحمة، وقد يفهمها الآخرون بأنها عصبية، والأولى سد الذريعة، وإن كان من بكاء ففي مكان غير مكان تنفيذ الحكم. وقد استجاب الإمام العادل على طلب العلماء، وأخذ السيف والكمة وسلمها لهم، وصار في فترة التمحيص والاختبار كواحد منهم، يذهب ويروح وليس في خاطره إلا الرضا التام، وبعدما رأى العلماء صدقه ووفاءه أعادوه لمنصبه مرة أخرى، وقد حاول الرفض في البداية، إلا أنهم أصروا عليه فاستجاب لهم، وعاد لمنصبه كما كان بنفس العقد السابق، وسار فيهم سيرة حسنة، وحمد المسلمون حكمه فيهم، وعم العدل في البلاد، وكثر الخير فيها، واستراح الناس من الظلم. ومما امتاز بها عصر الإمام الجلندی: كثرة العلماء الورعين، أصحاب الهمم الرفيعة، والذين قامت على عواتقهم أركان الدولة، ومضوا بها نحو معالي الأمور، وهو الأمر الذي ساعد كثيرا بأن تسير الامامة وفق الخلافة الرشيدة، تقوم بالعدل، وتنشر المساواة بين الناس، وتجمع إلى الرشد، وتنهض بالحق، وتطبق الشريعة كما جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم، من إقامة للحدود، ورد للمظالم والحقوق، واجباء للزكوات ودفعها لمصارفها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحث على ما يصلح الناس في دينهم ودنياهم وآخرتهم، وقد كان كل هذا في امامة الجلندی بن مسعود، وكل هذا بفضل الله، الذي سخر لهذا العصر هذا الرجل العظيم، وسخر له بطانة من العلماء الربانيين، كانوا له سحائب ماطرة أينما وقعت أخصبت وأزهرت، يقول العلامة منير بن النير: "كانوا أهل فقه، وأهل علم، وتؤدة وسكينة، ولب، وعقل، ورحمة، وصدق ووفاء، وتحشع، وعبادة، وورع، وتخرج، وصله، ونصيحة ظاهرة مقبولة، لا يطمعون بمطامع السوء، ولا يتعاطون من الناس الحقوق، ولا يسترشون على طلب الحوائج التي تعينهم من أمر الرعية، ولا يستفضلون في الرزق على الشبهة، ولا يغتاب بعضهم بعضا، ليس من شأنهم الغيبة، ولا البغي، ولا الحسد، ولا التقاطع، ولا التدابر، ولا

البغضاء، ولا شيء في أخلاق أهل الريبة، يحرصون على آدابهم في الدين، ومع أهل الدين، ويكرهون العيوب، ويهجرون أخلاق الفجور والمعاصي، هم أنوار الأرض، وغرباء في الناس، يعرفون بسيماهم، وكيف لا يكون ذلك من باع نفسه ينتظر حتفها صباحا ومساء، ليس له في شيء من الأمور، ولا لأحد من الناس دنت رحمه أو بعدت، أو عظم خطره أو صغره، أو ارتفع شأنه أو تواضع هوى إلا ما وافق الحق، مع ما لا يحصى من أخلاقهم الحسنة الجميلة التي زينهم الله بها في الدنيا، وترك عليها الثناء الحسن الجميل فيمن خلق بأعقابهم".

وبأمثال هؤلاء الأفذاذ تعز البلدان، وتقوى شوكة الإسلام، فمن الإنجازات التي تدل على قوة هذا العهد، هزيمة جيش الصفرية، الذين أتوا هاربين من ملاحقة الجيش العباسي لهم، وكانت وجهتهم مباشرة إلى عمان، وهذا أمر في غاية الخطورة؛ إذ القوم بكامل عدتهم وعتادهم، ولم يأتوا إلى عمان كأفراد، بل أتوها وهم جيوش حرب، وكان يقودهم شيبان اليشكري، فسارع الإمام للتصدي لهم، وحاول منعهم من الدخول، إلا أنهم أصروا على ذلك، فدارت بينهم حرب طاحنة بجلفار، كانت الدائرة فيها لجيش الامام الجلندی. ومن الإشارات اللطيفة التي تبعث الاطمئنان على تبني الفكر الاباضي، ما قاله يحيى بن نجیح قبل بدء القتال: "اللهم إن كنت تعلم أنا على الدين الذي ترضاه، والحق الذي تحب أن تؤتي به، فاجعلني أول قتيل من أصحابي، وأن الدائرة على أصحابه. وإن كنت تعلم أن شيبان وأصحابه على الدين الذي ترضاه، والحق الذي تحب أن تؤتي به فاجعل شيبان أول قتيل من أصحابه، فأمن الفريقان على هذا الدعاء، وزحف القوم على بعضهم البعض، وكانت نتيجة هذه المعركة، أن قتل (يحيى بن نجیح، وقتل شيبان، وتمكن جيش الامام من القضاء على جيش شيبان حتى أنهم لم يبق منهم أحد".

٤

١

أحد".

٤ السالمي، تحفة الأعيان، ج ١، ص ٩٢، مرجع سابق. انظر: الرواحي، الإمامة والأئمة، مرجع سابق، ص ٨٤.

٤ السالمي، تحفة الأعيان، ج ١، ص ٩٢، مرجع سابق. انظر: الرواحي، الإمامة والأئمة، مرجع سابق، ص ٧٦.

استشهاد الامام:

بعد مسيرة استمرت زهاء سنتين وشهر أو شهرين، مسيرة في العدل والانصاف والمساواة في الحقوق، مسيرة في العلم والعمل والورع والتقوى، حدث ما لم يكن في الحسبان، حادثة ما عرف التاريخ مثلها، وهي مجزرة خازم بن خزيمة -عامل الخليفة العباسي السفاح بن العباس- فبعد أن انهزم جيش شييان، جاء مباشرة جيش خازم بن خزيمة إلى عمان، قبل أن يهجع جيش الامام ويستريح من تعبته بعد المعركة الأولى، ويبدو أن خزيمة هذا، كان يتعقب شييان وأتباعه من قبل، وعلم أنه سيأتي إلى عمان، ولذا كان يخطط في التقاء الفريقين والخلاص من أحدهما، ثم يسهل بعد ذلك القضاء على الفريق المنهك المتبقي، فالتقى بجيش الامام، وحاول أن يستميله إلى جانبه، وطلب منه أن يسلمه خاتم وسيف شييان، وأن يعلن السمع والطاعة للخليفة العباسي، إلا أن الامام وعلماء الاباضية كانوا يدركون ما معنى الانصياع لهذه الدولة الباغية، فرفضوا ذلك، فدارت بينهما واقعة عظيمة، تسببت في بداية الأمر بمقتل عدد من جيش ابن خزيمة، وكادت الدائرة تدور عليهم لو استمرت المعركة كما هي، إلا أن مكر خازم وأتباعه، وقبح فعلهم، ألجأهم إلى حيلة مأكرة، فقدوا فيها إنسانيتهم وكرامتهم وأخلاقهم، وظلت وصمة عار تلاحقهم مدى الدهر، فقد عمدوا على احراق البيوت المأهولة بالنساء والأطفال والشيخوخ، وكانت من سعف النخيل، فاضطرب جيش الامام، وحاول مجموعة كبيرة من الجيش اللحاق بالبيوت وإنقاذ من فيها من فلذات أكبادهم وأزواجهم، فبينما هم ينقذون الأطفال والنساء إذ بالسهم والرمح من خلفهم، فقتلوا مع أطفالهم ونسائهم، ولم يبق في المعركة إلا الإمام وقاضيه هلال بن عطية، ظلا ثابتين ثبات الصخر، وحينما طلب الامام المشورة من هلال، قال هلال قوله المشهورة: "أنت إمامي فكن أمامي" فتقدم الامام واستشهد، وتقدم هلال بن عطية واستشهد معه، واستشهد في المعركة نحو عشرة آلاف شهيد من الرجال والأطفال والنساء والشيخوخ رحمهم الله جميعا ، وكان ذلك سنة ١٣٤هـ، وانتهت قصة امامة حملت في طياتها

^٤ انظر: الرواحي، الامامة والأئمة، ص ٧٩، مرجع سابق.

^٤ المرجع نفسه.

أسمى درجات الفضيلة والشرف والعزة، وظلت محبورة بدماء الشهداء، ودمعات الأبرياء، " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون" .^٤

٢- الدولة الرستمية:

وسأقتصر على ذكر امامة عبدالرحمن بن رستم (١٦٠هـ-١٧١هـ) مؤسس الدولة الرستمية كمثال حي على أثر الظهور العادل، وما يصنعه في نماء المجتمع وازدهاره، على أن خيرات هذه الإمامة امتدت بعد الإمام عبدالرحمن لأمد بعيد، ولم يصبها الضعف إلا في أواخرها.

قبل أن يؤسس عبدالرحمن بن رستم دولته في أرض تيهرت، وقبل أن تجتمع حوله القبائل المغربية من كل صوب وحب، مر بظروف عصيبة وأحوال صعبة، كاد أن يفقد فيها حياته لولا لطف الله به أولا، ورحمته وفضله على الأمة الإسلامية ثانيا؛ إذ حفظ لها روحا لتحيا لها دولة تعيش تحت ظلالها آمنة مطمئنة لأجل طويل، وخبر ذلك أنه حينما قتل الإمام أبو الخطاب المعافري على يد ابن الأشعث قائد أبي جعفر المنصور (٩٥هـ-١٥٨هـ)، وكان عبدالرحمن قد جاء بمدد يعين به الإمام، سمع قبل وصوله إلى أرض المعركة بأن الإمام قد قتل؛ فتفرق جيش عبدالرحمن المصاحب له، وبقي معه عدد قليل، فرجع إلى أرض القيروان هو ومن تبقى معه مستخفيا، فتبعه ابن الأشعث، وحينما علم بتتبعه له خرج من القيروان مباشرة، واصطحب معه ابنه عبدالوهاب ورقيق لهما، ثم توجهوا قبل المغرب الأوسط، وتحصنوا بجبل هناك يسمى "سوفجج"^٥ بالقرب من تيهرت،^٤ واشترك معهم في التحصن جماعة من أصحابه، فلحق بهم ابن الأشعث، وظل محاصرا لهم حتى أصابه اليأس؛ فتركهم وعاد إلى القيروان. يقول الدرجيني: "خرج عبد الرحمن من القيروان هو وابنه عبد الوهاب وعبد لهما خائفين مستخفين متوجهين إلى أرض المغرب، وليس معه حمولة ولا مركوب غير فرس واحد، فمات الفرس في بعض الطريق،

^٤ (آل عمران: ١٦٩).

^٤ اسم جبل يقع جنوب العاصمة تيهرت.

^٤ عاصمة الإمامة الرستمية ببلد المغرب.

فدفنوه مخافة أن تقص أثرهم فيطمع فيهم، وذلك خارج قسطنطينية ... فلما عدموا الفرس وقد ضعفت قوى عبد الرحمن، تعاون عليه ابنه يحمله تارة، ويحمله العبد أخرى ... فلما وصلوا حول واد أجج، هو جبل منيع، قصده عبد الرحمن وتحصن به ... وسمع ابن الأشعث بذلك، فأقبل مجدا معدا في طلبه، فأخبر بأنه في جبل منيع، حتى وصله فحاصر عبد الرحمن بن رستم ... فأطال المكث ... فرجع إلى القيروان وقد ينس من عبد الرحمن وأصحابه" ^٤

وبعد أن أحس عبدالرحمن ومن معه بأن الخطر قد انتزح عنهم، نزلوا من الجبل، وبدأوا يخططون ويفكرون سوا ضرورة أن يكون لهم مكانا آمنا، يقومون بعمارتهم ويعيشون فيه تحت حكم الله كما أنزله عليهم، بعيدا عن تسلط الجبابرة وبطشهم؛ ولذا اتفقوا واجتمعوا أن يكون المكان هو أرض تيهرت، وكانت أرضا غير معمورة، لا يسكنها إلا السباع والهوام، لكنهم مع ذلك رأوه مكانا أكثر أمانا من الأمكنة التي يسكنها بعض البشر، خاصة في مثل تلك الأيام العصيبة؛ فكان لهم كما رغبوا فبنوا المدينة، وتحافتت القبائل نحوهم لما سمعوا بحسن سيرتهم وأنس جيتهم، وبعد أن كثر عددهم وقوي حالهم، اختاروا عبدالرحمن ليكون إماما لهم سنة ١٦٠ هـ؛ لما علموا من أمر استقامته ونزاهته وورعه وعلمه وقدرته على القيام بشؤون المسلمين، يقول الباشا الباروني: "كان رحمه الله مشهورا بالعلم، معدودا في فحول العلماء الراسخين". ^٤ وبهذه الصفات التي كان يحملها كان الأجدر بحمل هذه الأمانة، والأولى بتولي زمام الإمامة حتى يسير بالأمة نحو صلاحها وفلاحها في دينها ودنياها وعاقبة أمرها، وكان رحمه الله كذلك أن قد اعترف بفضل المحب والمبغض؛ فهذا ابن الصغير المالكي يقول عنه: "فسار فيهم سيرة جميلة، حمدها أولهم وآخرهم، ولم ينقموا عليه في أحكامه حكما ولا في سيره سيرة، وسارت بذلك الركبان إلى كل البلدان، وكانت له قصص حكوها عنه لا يمكن ذكرها إلا على وجهها، وأن أتحرى فيها الصدق ولا أحرفها عن معناها، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها، إذ النقص في الخبر والزيادة فيه ليس من شيم ذوي المروءات، ولا من أخلاق ذوي الديانات، وإن كنا للقوم

^٤ الدرجيني، الطبقات، ص ٣٥-٣٦. انظر: إبراهيم بكير، القضاء في المغرب الإسلامي من تمام الفتح حتى قيام الخلافة الفاطمية، ط ٢، جمعية التراث، الجزائر، ١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٦ م، ج ٢، ص ٥٢٦-٥٢٧.

^٤ معمر، علي يحيى، الإباضية في موكب التأريخ، مراجعة سليمان بابيز، ط ٣، مكتبة الضامري، السيب، سلطنة عمان، ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ م، الحلقة ٤، ص ٤٦.

مبغضين، ولسيرهم كارهين" ^٤ وفي مقولة ابن الصغير يلحظ الباحث: أن ابن الصغير قد أنصف مقالته، وكان صادقا في قوله، فهو لم يقل إلا ما شاهده بأمر عينه، ونحن وإن كنا نقدر له إنصافه وحكايته لسيرة الإمام كما رأى، إلا أن من العجب أن يبغض من كان حكمه كما ذكر! وكيف يكره سيرة من كانت سيرته كما ذكر! وعن ذكر عدالة الإمام عبدالرحمن وحسن سيرته كتبت أقلام وأقلام، ويكفي ما قاله الكعك عنه: "فاستمر في عمله فرتب البلاد، واستمر فيها بالعدل والإنصاف متبعا أحكام الدين ومتبعا لأوامره، واقفا عن نواهيها، فدانت له الرقاب خاضعة لعدله، ووفدت الأقوام إلى مملكته، داخله تحت رايته لما لها من كفالة في حكمه، ومن طمع في الارتزاق تحت ظل الأمن والرعاية" ^٥ إن هذا العدل في الحكم، والانصاف في القضاء، وحسن سيرة الإمام وبطانته والناس من حوله، هو الذي يقوي من ركيزة الدولة المسلمة، وهو الذي يؤلف قلوب الأمة المؤمنة؛ فإن تحقق هذا لأي مجتمع مسلم كان، حتما ستتنتعش الحياة، وتصلح الأحوال، ويعيش الناس في خير وأمان "ولو أن أهل القرى آمنوا واتفقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض". وهذا ما تحقق لهذه الدولة المسلمة دولة الإمام عبدالرحمن بن رستم، فعاشت ما شاء الله أن تعيش في خير وفضل ونعمة من الله، وقد تكاثرت نسلها، وكثر خيرها وتوسع علم أصحابها، وقصدها الناس من أصقاع عديدة، طمعا في العيش تحت حكم عادل يحكم بما أنزل الله، ورغبة في طلب العلم لانتشار العلماء فيها، وطلبا للرزق لتفكر خيرات هذه البلدة المباركة. وأترك للقارئ أن يتصور أثر قيام هذه الدولة العادلة فيما كتبه ابن الصغير المالكي عنها فيقول:

"قوي الضعيف، وانتعش الفقير، وحسنت أحوالهم، وخافهم جميع من اتصل به خبرهم، وأمنوا ممن كان يغزوهم، ثم شرعوا في العمارة والبناء، وإحياء الموات، وغرس البساتين، وإجراء الأنهر، واتخاذ الرحاء ^٦ وغير ذلك واتسعوا في البلد وتفسحوا فيها، وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار، وأقاصي الأقطار، ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم، وابتنى بين

^٤ علي يحيى، الإباضية في موكب التاريخ، مرجع سابق، الحلقة ٤، ص ٦٤.

^٥ المرجع نفسه، ص ٤٧.

^٦ الرحاء: جمع رحا وهي عبارة عن حصاتين مستويتين يطحن بها الحبوب، ويصلح أن تجمع "رحوات". انظر: المرجع

نفسه، ص ٨.

أظهرهم، لما يرى من رخاء البلد، وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته، وأمانه على نفسه وماله، حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد الكوفيين، وهذا مسجد البصريين، والبلد زائدة عمارتها في ذلك كله، والسيرة واحدة وقضاته مختارة، وبيوت أمواله ممتلئة وأصحاب شرطته والطائفون به قائمون بما يجب، وأهل الصدقة على صدقاتهم، يخرجون في أوان الطعام فيقبضون أعشارهم في هلال كل موسم، ومن أهل الشاة والبعر يقبضون ما يجب على أهل الصدقات لا يظلمون ولا يظلمون... ثم أمر قوما في نفوسة يمشون في الأسواق فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فإن رأوا قصابا ينفخ في شاة عابوه، وإن رأوا دابة حمل عليها فوق طاقتها أنزلوا حملها وأمروا صاحبها بالتخفيف عنها، وإن رأوا قدرا في الطريق أمروا من حول الموضع أن يكنسه، ولا يمنعون أحدا من الصلاة في مساجدهم، ولا يكشفون عن حاله ولو رأوه رافعا يديه، وكانت خطبهم على المنابر خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب... إن قضاته وأصحاب بيت أمواله وأصحاب شرطته ومن بالبلد من فقهاء الإباضية وغيرهم لم يطالب بعضهم بعضا، ولا سعى بعضهم ببعض، وكانت مساجدهم عامرة، وجامعهم يجتمعون فيه وخطيبهم لا ينكرون عليه شيئا... إلا أن الفقهاء تناجحت بالمسائل فيما بينهم وتناظرت، واشتهت كل فرقة أن تعلم ما خلفتها فيها عاقبتها ومن أتى إلى حلق الإباضية من غيرهم قريوه، وناظروه ألطف مناظرة، وكذلك من أتى الإباضية إلى حلق غيرهم كان سبيله كذلك. " °

إن التجربة الإباضية في سياسة الظهور وقيام الدول العادلة لها ميادين عديدة وهي أكثر من أن تحصر؛ وإنما ذكرت مثلا واحدا من بين العديد من الأمثلة؛ لأن حصرها يحتاج لموسوعة تاريخية وبحثي هذا كان الهدف منه إبراز صدق النظرية الإباضية في مسالك الدين، وأنها ليست مجرد تنظير تعمر به الكتب ولا وجود لها في الساحة السياسية؛ بل بالعكس فالإباضية إن أردت دراسة فلسفتهم الإسلامية وسياستهم في الحكم، فعليك بتجارهم التي خاضوها فهي أكبر شاهد عليهم.

° علي يحيى، الإباضية في موكب التاريخ، مرجع سابق، الحلقة ٤، ص ٨-٩.

المبحث الثاني: الدفاع

المطلب الأول: تعريف الدفاع وموجباته وأهدافه

أولاً: تعريف الدفاع

١ - لغة: "الدفع: الإزالة بقوة... ودافع عنه بمعنى دفع، تقول منه: دفع الله عنك المكروه دفعا، ودافع الله عنك السوء دفعا" °.

٢ - اصطلاحاً: " هو اجتماع الناس على إمام يقدمونه عند مقاتلتهم العدو الذي أدهمهم فإن زال القتال زالت إمامته، ويجب عليه جميع الأحكام التي تقع حال كونه إماماً، ويجب عليهم طاعته، كعبدالله بن وهب الراسبي إمام أهل التحكيم.. ثابعوهم إذ غشيه العدو" °.

ففي الدفاع يجتمع الناس اجتماعاً عاجلاً، وذاك حينما لا يكون هناك ظهور، وينصبون إماماً يقودهم للتصدي على عدو يتوقعون هجومه عليهم، ويعرض بذلك حياتهم وممتلكاتهم، والأخص دعوتهم للخطر، فيبايعونه على الدفاع عن كل ذلك، ويكون إماماً مطاعاً فيهم له صلاحيات حكم الظهور، فإذا انتهت المعركة بالنصر أو انسحب العدو، زالت إمامته دون حاجة لعزل، ولهم أن يختاروه مرة أخرى لإمامة الظهور إن توفرت فيه الشروط المناسبة، ولهم أن يختاروا غيره. وإذا انتهت بالخسارة لهم أن يلجأوا إلى الشراء، ولهم أن يرجعوا إلى الكتمان؛ وذاك حسب الظروف الملائمة ففي كل ظرف مسلكه المناسب. والدفاع عن الدين والنفس والعرض والمال والوطن فرض لا يعذر عنه المسلمون، يقول الشماخي: " والدفاع من الفروض الواجبة" °، وقد يحصل الدفاع بسبب غشيان العدو المفاجيء؛ بحيث يكون الزحف منه أولاً كإمامة عبدالله

° ابن منظور: لسان العرب، مصدر سابق، ج ٨، ص ٨٧، مادة: "دفع".

° الشماخي، شرح مقدمة التوحيد، ورقة ١٦ ب. انظر: مهدي طالب هاشم، الحركة الإباضية، مرجع سابق، ص ٢٦٨.

° الشماخي، شرح مقدمة التوحيد، ورقة ١٦ ب. انظر: مهدي طالب، الحركة الإباضية، مرجع سابق، ص ٢٦٨.

بن وهب الراسبي في النهروان، وقد يكون ثورة بعد انهيار الدولة القائمة وقيام دولة أخرى ظالمة قد ضاق المسلمون منها ذرعا، فيثورون ضدها، يقول علي يحيى معمر: "الدفاع في مسالك الدين يرادف ما يعبر عنه في العصر الحاضر بالثورة... الثورة على الاستعمار الأجنبي، أو الثورة على الاستعمار الداخلي: كالثورة على الظلم، والثورة على الإقطاع، والثورة على الفساد، والثورة على الانحراف عن دين الله في كل مظهره وأشكاله" °، ومن أمثلة ذلك: إمامة محمد بن عبدالله بن أبي عفان ضد أنصار الدولة العباسية المعادية في تلك الفترة، "فبايعوا لابن أبي عفان حتى تضع الحرب أوزارها من عمان ثم الأمر شورى بين المسلمين" °.

إذن فالدفاع إما أن يكون تصديا لغشيان العدو ولم تكن هناك دولة قائمة تحميهم، أو ثورة ضد حكم ظالم للضغط عليه أملا في تغيير سياسته في الحكم أو الإطاحة به.

ثانيا: موجبات الدفاع وأهدافه:

لا يتحرك في الأمة حراك يثور بها ضد أحد، إلا لأسباب ودوافع قضت من مضجعها، وأيقظت من هممها، ورغبت بها عن خنوعها واستسلامها إلى الشجاعة والإقدام والتضحية والقتال، آملة بعد هذا الجهد والجهاد والعراك والصدام تحقيق أهدافها النبيلة وتطلعاتها السامية. والدفاع أعظم تضحية يقدمها المرء للأمة المسلمة كيف لا! وهو يعرض حياته للموت في سبيل نصرة الدين والدعوة، ويدود عن الوطن، ويدافع عن المسلمين.

وإن مما يوجب الدفاع:

١ - أن يداهم عدو خارجي الجماعة المسلمة، ويطيح بالإمامة القائمة، ويستضعفهم بعد ذلك؛ فيأكل أموالهم، وينشر الفساد في بلادهم؛ عندها يتجمع أهل الدعوة وأصحاب العلم والفضل،

° علي يحيى، الإباضية في موكب التاريخ، مرجع سابق، الحلقة ١، ص ٧٦-٧٧.

° البسيوي، الحجة على من أبطل السؤال، ورقة ٢٢. انظر: مهدي طالب، الحركة الإباضية، مرجع سابق، ص ٢٦٨.

فيرشحون إماما يقاتلون معه ضد هذا العدو الذي سلبهم حق العيش بحرية في بلدهم أو أن يحكموا بشريعة الله كما أمر الله.

٢- أن يأتي عدو داخلي، وأصله قد جاء من انشقاق عن الإمامة المسلمة القائمة في تلك المنطقة؛ بحيث لم يرض بحكمها فيهاجمها بدعم خارجي، وربما تسبب في قتل إمامها؛ عندها يرشح المسلمون إماما آخر لكنه إمام دفاع هذه المرة "قائد عسكري"، فيقودهم لمحاربة هذه الجماعة المتطرفة، فإذا انتصر أقيمت إمامة الظهور مرة أخرى، والأمر شورى بين المسلمين في تثبيت منصبه وجعله إمام ظهور، أو اختيار رجل آخر كما أشرنا سابقا في تعريف إمامة الدفاع.

٣- أن ينحرف إمام الظهور عن الجادة، ويتسبب في فساد الرعية وينصح ولم يستجب وينهى ولم ينته؛ عندها تعلن الثورة ضده فيما النجاح بالإطاحة بحكمه، أو على أقل تقدير النجاح في تغيير وجهته وردة إلى جادة الحق، خاصة إذا كان له نفوذ وسطوة؛ ويعتمد هذا على حسب قوة الثورة والظروف المؤاتية لها.

لكن يشترط قبل إعلان الثورة أن يكون عددهم على الأقل أربعين رجلا حرا بالغاً؛ اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، حيث إنه لم يعلن ثورته في مكة ضد المشركين إلا بعد أن أصبح عددهم أربعين^٥، وبسببها نزلت الآية: ((فاصدع بما تؤمر^٦ وأعرض عن المشركين))^٥.

وخلاصة هدف الدفاع:

١- تغيير وجهة ظالمة إلى العدل والإنصاف، وربما يضطر الأمر إلى قلب الحكم كاملا، وجعله حكما إسلاميا عادلا؛ وهذا بحسب قوة أهل الدعوة.

٢- رد العدوان الغاشم، والذود عن الوطن والدين.

^٥ وهو شرط للشراء كذلك؛ فالدفاع والشراء كلاهما ثورة إلا أن الشراء أكثر جدية وصرامة، وشروطه تتسم بالقسوة والجلد؛ ففيه ترك للدنيا وملاذها ومتاعها، واقبال إلى الآخرة بالكلية. وسيأتي ذكر ذلك في مبحث الشراء.

^٦ (الحجر: ٩٤).

المطلب الثاني: ما بعد الدفاع

يأمل المسلمون أن ينجحوا في تحقيق النصر من ثورتهم، وإعادة الأمور إلى مجاريها، فإذا كتب الله لهم النصر وهزم أعداءهم؛ فهم حينئذ بين نصرين:

١- نصر أكبر: تقوم بعده إمامة الظهور، فيجتمع الناس حولها، ويعملون على ترسيخ أركانها وتقويتها بعد الضعف الذي حصل لها، ومحاسبة الفاسدين والخائنين، وتتبع أسباب الضعف؛ حتى يرأب صدعها، ويسبر غورها من جديد، فتغدو بذلك دولة متينة يهاجمها الأعداء "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم" ^٦ ويعيش المسلمون تحت ظلالها أعزة، "ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين" ^٦، وهذا لا يكون إلا بالإطاحة بالحكم الظالم الذي سبق الثورة، أو بدحر العدو الخارجي الغاشم، أو بقمع القوة الداخلية التي لها صلة بالعدو الخارجي في العادة "فأيدينا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين".

٢- نصر أصغر: لا يسقط فيه الحكم السابق الذي أظهر الظلم وثار الثوار بسببه؛ ولكن يتغير نظامه إلى الأفضل، ويصالح الثوار، ويلبي طلباتهم، ويهادنهم على السلم؛ وبذلك تتوقف الثورة، ويكون أهل الدعوة تحت دستور يتماشى مع رغباتهم. أما زعيم الثورة فيعود مواطنا عاديا كما أسلفنا؛ لأن إمارة الدفاع تنتهي مباشرة بعد نهاية الثورة.

هذا إن تحقق لهم النصر. فإن انتهت المعركة بالهزيمة ففي هذه الحالة:

أ- إما أن يقضى على جميع الثوار، ولا يبقى منهم أحد؛ فيكونوا بذلك قد نالوا الشهادة، وختموا حياتهم بالتضحية والفداء "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون" ^٦

ب- وإما أن يبقى منهم جماعة؛ فيكونوا بين أمرين:

^٦ (الأنفال: ٦٠).

^٦ (المنافقون: ٨).

^٦ (آل عمران: ١٦٩).

١- إما أن يدخلوا في مرحلة الكتمان، فيبتعدوا عن أنظار السياسة الظالمة، ويشتغلوا بالإعداد والتهيئة في الخفاء؛ لئلا تموت دعوتهم، كالذي حدث بعد معركة النهروان.

٢- أو أنهم يشرون أنفسهم، فيدخلون في مسلك الشراء. وهذا على شرط ألا يقل عددهم عن أربعين، فإن قلوا ليس لهم إلا الكتمان.

المطلب الثالث: من مواطن الدفاع وأثرها

بما أن الدفاع يحصل في ظل غياب الإمامة العظمى (إمامة الظهور)، وهي قيادة مؤقتة تجمع شمل المسلمين، وتوحد صفهم للقتال والمدافعة ضد عدو غاشم يهدد حياتهم ودعوتهم وكل ما يملكون ويعرضها للخطر، فلا غرو أن المواطن فيه كثيرة. وكون الدعوة الإباضية كانت محفوفة بالعداوات، وكانت تتعرض لهجمات مستمرة جعل أمر استمرار إمامات الظهور والاحتماء تحت ظلها أمرا غير ثابت؛ ولذا كان البديل عنها إمامات الدفاع، ولقد بحثت عن أكثر مواطن الدفاع، لإبراز شيء من نماذجها كشاهد على تطبيق هذا المسلك في معترك الحياة العملية، ووجدت أن أغلب هذه الإمارات وقعت في بلاد المغرب، خاصة بعد سقوط الدولة الرستمية، فقد احتاج المسلمون حينها للدفاع عنهم وعن دعوتهم ضد كل من سولت له نفسه بالاعتداء والتسلط على المؤمنين دون وجه حق. وملخص هذه الإمارات أذكرها لكم بنصها كما لخصها علي يحيى معمر من رسالة أبي اليقظان سماها " نموذج إمارة الدفاع " وهي:

١ - "عندما قتل المعز لدين الله الفاطمي أبا القاسم يزيد بن مخلد في " الحمة " غيلة وبدون أية جريرة جناها أبو القاسم غضب الإباضية، وجاءوا إلى العلامة أبي خزر يغلا بن أيوب فبايعوه إمام دفاع على أن يقوض أركان الدولة الفاطمية، وقبل منهم البيعة، وبدأ العمل حتى بعث إليه الفاطمي يعرض الصلح، ويتنازل عن حكم المواطن العامرة بالإباضية، واستشار أبو خزر أصحابه في الموضوع فرفضوا وطلبوا منه الاستمرار في القتال.

٢ - عندما احتل الأسبان أغلب الثغور الإسلامية من المغرب الإسلامي قرروا احتلال " جربة " فاجتمع أهل " جربة " وقدموا عليهم أبا زكرياء السمويني، فبايعوه إمام دفاع، وتقبل منهم البيعة، وحارب بهم العدو حتى طرده في صورة مخزية للعدو مشرفة للإسلام والمسلمين.

٣ - في سنة ١٢٢٦ هـ قرر ابن جلاب الهجوم على " وارجلان " من " تفرت "، فاستنصر أهل وارجلان بإخوانهم في وادي ميزاب فجاءتهم النجدة، واتفقوا على أن يقدموا عليهم جميعا الشيخ طباح داود بن إبراهيم إمام دفاع، واستطاع الإمام أن يقف أمام العدو وأن يرده في هزيمة منكرة

تحدث عنها شعراء ذلك العصر وعندما فر العدو وأمنت السبل، ورجعت الأمور إلى نصابها انحلت بيعة الشيخ طباخ عن أعناق الناس، وأصبح في مكانه العادي بين أفراد الأمة.

٤- قرر بعض العربان الهجوم على وادي ميزاب، وقطع طريق القوافل عنه، فاجتمع أهل الوادي، وقدموا عليهم الشيخ سليمان بن عيسى اليزني إمام دفاع، فقاد جيش الدفاع، وأدار المعركة بنظام، ووقع قتال، وسقط في الميدان شهداء، وانهمز العدو، وولى أدباره تاركاً مالا وعتادا، وبعد انجلاء المعركة عاد الإمام إلى مكانه فردا عاديا إلى الأمة.

٥- نصب محمد أبو شوشة نفوذه على جنوب قسنطينة وهجم على وارجلان، فارتكب فيها الأفاعيل، وخطر له أن يهجم على وادي ميزاب، فسمع أهل الوادي، فاستعدوا لذلك وقدموا عليهم الشيخ حمو بن باحمد باكلي إمام دفاع، فنظم الصفوف، واستنفر الشباب الموجود خارج البلد، فرجع وكتب الكتائب، واستعد للقاء العدو عند الحدود، فلما سمع أبو شوشة بذلك التنظيم وبلغته أخبار الاستعداد خاف العاقبة، فأراد الرجوع بشكل لا يسقط هيئته، فبعث إليهم رسالة يقول لهم فيها: "اعلموا أنني أمهلتمكم مدة شهر وثلاثة أيام لتقدموا إلي طاعتكم، وتدخلوا تحت سلطاني، فإذا انتهى الأجل ولم تمتثلوا لأمرى قاتلتكم"، وقد انتهى الأجل ولا يزالون ينتظرونه، ولسان حالهم يقول: إن عادت العقر فبالنعل حاضرة" ^٦.

ويتضح جليا من هذه النماذج الصورة الحية لكيفية الدفاع، وضرورة وجوده في حياة الناس في ظل غياب الدولة، التي تقوم بمهمة الحماية والأمن؛ وذلك لمدى أثره البالغ في تغيير الواقع الخطر إلى واقع آمن، يدحر قوى الشر، ويقف دون تحقيق أهدافها الخبيثة.

ولولا وجود مثل حركة الدفاع لتعرضت الأمة للهلاك، أو تعرضت لتكالب الأعداء، ولإذلالهم لها، ومهانتهم إياها؛ إذ إن عدم مجابهة خطر العدو يفتح أبواب التسلط والاستعمار. وهذا ما جعل الإباضية يسلكون مسلك الدفاع في كثير من المواقف؛ وذلك حفاظا على دعوتهم

^٦ علي يحيى، الإباضية في موكب التاريخ، مرجع سابق، الحلقة ٤، ص ٢٣٨-٢٣٩.

وحياتهم ومكتسباتهم من خطر الأعداء. وقد ظهر جليا مدى الأثر الذي حققه الإباضية من وراء كل دفاعاتهم، وإن أعظم أثر حققوه هو بقاء دعوتهم للأجيال التي أتت من بعدهم صافية نقية، لم تتبدل ولم تتغير؛ إذ لم يسلموا للعدو زمام الأمر، يعيش في المجتمع ما شاء من فساد، ويغير ويبدل من فكر المسلمين الناضج النير إلى فكر لا يصلح إلا للمادة والشهوة، خاليا من الروح والنزاهة كما حدث لبني إسرائيل من قبل؛ فقد تسلط عليهم كفار المجوس بسبب خنوعهم واستسلامهم للحياة المادية، وعدم دفاعهم عن الحق فعاثوا فيهم فسادا " فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا" ^٦.

^٦ (الإسراء: ٥)

المبحث الثالث: الشراء

المطلب الأول: تعريف الشراء، ومشروعيته، وشروطه، وأهدافه

أولاً: تعريف الشراء:

١- لغة:

كلمة الشراء في اللغة تأتي بمعنى البيع، وتأتي بمعنى الاشتراء أيضاً؛ فهي من الأضداد، وإنما يغلب معنى على معنى؛ بحسب سياق الكلام.

"قال أبو زيد: شريت بعت، وشريت أي اشتريت. قال الله عز وجل: ((ولبئس ما شروا به أنفسهم))؛ قال الفراء: بئسما باعوا به أنفسهم، وللعرب في شروا واشتروا مذهبان: فالأكثر منهما أن يكون شروا باعوا، واشتروا ابتاعوا، وربما جعلوهما بمعنى باعوا. الجوهري: الشراء يمد ويقصر. شريت الشيء أشريه شراء إذا بعتة وإذا اشتريته أيضاً، وهو من الأضداد؛ قال ابن بري: شاهد الشراء بالمد قولهم في المثل: لا تغتر بالجرة عام هدائها، ولا بالأمة عام شرائها؛ قال: وشاهد شريت بمعنى بعت قول يزيد بن مفرغ: شريت بردا ولولا ما تكلفني ... من الحوادث، ما فارقتة أبدا" ^٦.

٢- اصطلاحاً:

أن يبيع الإنسان نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى، أو أن يشتري نفسه من النار، أو أن يشتري الجنة ^٦. يقول الشيخ عمرو النامي: فأينما تجد هذا المفهوم في كتب الإباضية فهو يعني التضحية في سبيل الله لبلوغ الجنة ^٦.

^٦ ابن منظور: لسان العرب، مصدر سابق، ص ٤٢٨، ج ١٤، مادة: "شرى".

^٦ مجموعة باحثين: معجم مصطلحات الإباضية، ط ١، سلطنة عمان، مسقط، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سنة:

١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ج ١، ص ٥٥١.

^٦ النامي عمرو: دراسات عن الإباضية، ط ٢، ترجمة: ميخائيل، تونس، دار الغرب الإسلامي، سنة: ٢٠١٢م،

ص ٢٧٨.

وطريقته: أن يجتمع أربعون رجلا أو أكثر، يبيع كل واحد منهم نفسه لله، ويعقد العزم على الالتزام بما عاهد عليه الله من الجهاد في سبيله والثبات عند اللقاء وعدم التولي؛ فإما نصر، وإما شهادة، ويستأذن كل فرد منهم أهله ويودعهم ويترك لهم زادا ومؤونة تعينهم على قضاء حوائجهم، بعدها ينطلقون إلى حيث عقدوا العزم.

والشراء يكون واجبا لمن ألزم نفسه به، ويكون اختياريا للآخرين ممن تتوفر فيهم شروط
الشراء.

ثانيا: مشروعية الشراء

هناك أدلة من الكتاب والسنة يستدل بها الإباضية على مشروعية الشراء، من ذلك قوله تعالى: ((إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوارة والإنجيل والقرآن))، وقوله عز من قائل: ((ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد)). ومن السنة يستشهد الإباضية بحادثة حدثت لسيدنا عثمان بن عفان، حينما أشاعت قريش بأنها قد قتلتها، ثار النبي -صلى الله عليه وسلم- وراح يدعو الصحابة رضوان الله عليهم لمبايعته لحرب قريش؛ على رغم قلة عددهم وإمكاناتهم، حتى سميت هذه البيعة ببيعة الشراء أو بيعة الموت؛ فقد بايعوا الرسول -صلى الله عليه وسلم- بيعة لا يرجون بها شيئا من متاع الدنيا، وإنما هي لله وحده؛ فإما نصر وإما شهادة. وهذا هو جهاد الشراء.

ثالثا: شروط الشراء

للشراء شروط فردية وعامة، لا بد أن تتوفر حتى يكون الشراء جائزا، مرضيا لله عز وجل، وهي كالآتي:

١- شروط الشاري:

- "لا يخرج الشاري إلا بسماع والديه له.
- تسديد ما عليه من ديون وتبعات في حق العباد أو حق الله.
- توفير ما يكفي من زاد مؤونة لأهله.
- أن يكون زاده الذي يتزود به حلالا خاليا من أي شبهة.
- أن يلزم طاعة قائده ولا يخالفه.
- أن يتحلى بمكارم الأخلاق بحيث يؤثر أصحابه إن رآهم في حاجة ولا يكون أنانيا.
- أن يثبت حينما يحتدم القتال ولا يهرب.

٢- الشروط العامة للشراء:

- أن يكون الخروج طمعا لمرضاة الله، لا طمعا في مال أو جاه أو شهرة وسمعة.
- ألا يقل عددهم عن أربعين، تأسيسا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - فقد أمره الله بصدع دعوته حينما أصبح عدد المؤمنين أربعين؛ وهو سبب نزول الآية " فاصدع بما تؤمر ^٦ (وأعرض عن الجاهلين)) . وذكر الشيخ خميس الشقصي في كتابه - منهج الطالبين - بأنه إن لم يوجد لاكتمال العدد إلا امرأة فيجوز إضافتها ^٦.
- يمنع الشاري أن يرجع إلى داره إلا إذا أقيم العدل، وإلا الموت دون ذلك، وبعضهم أجاز إن قل عددهم عن أربعين، وحدد البعض أن يقلوا ثلاثة على الأقل، ويرى القطب إذا أصبح عددهم أقل عن ثلاثة فلهم الرجوع؛ " وإمام الشراء إذا نزل عن ثلاثة فليس عليه شيء وقيل يجاهد حتى يظهر أمر الله أو يموت " ^٧. وهناك من يرى أن له ذلك بشرط أن ينوي حين عقد الشراء بالرجوع.

^٦ الحجر، الآية ٩٤.

^٦ الشقصي: خميس بن سعيد، منهج الطالبين، تحقيق: سالم بن حمد الحارثي، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، سنة ١٩٧٩م، ج ٨، ص ١٩٤.

^٧ أطفيش ترتيب لقط الشيخ موسى بن عامر، ص ١٦، نقلا عن عدون جهلان، الفكر السياسي عند الإباضية، مرجع سابق، ص ١٩٠.

- ليس لهم أن يستقروا في مكان واحد، بل عليهم التنقل الدائم؛ لأن مهمتهم تقتضي ذلك، حتى لا يركنوا لراحة تنسيهم غايتهم وهدفهم من الشراء، فهم ما باعوا أنفسهم إلا لأمرين: إما تحقيق الهدف المنشود ورد الظلم، أو الموت دون ذلك.
- يقصروا صلاحهم في كل بقعة يكونون فيها، ولا يصلون حضرا إلا في ثورتهم.
- أن يكون الخروج لإنهاء الظلم وإعادة الحق.
- ليس لهم أن يطالبوا بأخذ السلطة.
- أن يكون اختيار الأمير منهم وطاعته ملزمة عليهم.
- لا يأخذوا بالتقية بل عليهم أن يعلنوا الحرب في وجوه الظلمة دون خوف.
- ألا يجهبوا على مصاب، ولا يلحقوا موليا، ولا يقتلوا طفلا ولا امرأة ولا شيخا مسنا، وألا يغنموا غنائم أهل القبلة، ولا يتعرضوا لأعراضهم.
- لا يهدموا المباني ولا يهلكوا الحرث والزرع، ولا يحرقوا الأشجار، إلا لضرورة ملحة بها مصلحة^٧.

رابعا: أهداف الشراء

إن هدف الشراء من الشراء، قد تبدو من الوهلة الأولى أنها سياسية وحسب، إلا أن هذا الهدف السياسي يسعى الإباضية من ورائه تحقيق أهداف دينية وإنسانية بعيدة المدى؛ فالسياسة في دين الله لا تنفصل عن الدين بحال؛ فهم يسعون بداية لتغيير وجهة بعض الحكومات الظالمة التي يرتبطون بها، وقد تم استضعافهم واستبدادهم من قبلها، فيردعوها عن الظلم ويردوها للعدل، أو يطيحون بحكمها؛ وتقوم عوضا عنها حكومة عادلة، سواء كانت هذه الحكومة مسلمة إلا أنها انحرفت عن الجادة واستتب الظلم فيها، أو أنها حكومة كافرة لا تطبق الإسلام أصلا، فبعد أن يئأس المؤمنون من ضمان الاستمرار على حياة يرضاها الله ورسوله تحت ظل حكم جائر، وبعد طول اضطهاد لهم، يبدأ تنظيم الشراء بشن غاراته وهجماته على هذا الحكم، حتى يشعر

^٧ انظر: الشعيلي، محمد بن حمد، التاريخ العماني قراءات وتحليلات، ط ١، دار الفرق، ٢٠١٥م، ص ٥٤١.

المؤمنون أولاً بأن الإسلام ما زال قويا، وأن هناك من يدافع عنه، وهذا يعطي بحد ذاته أملا وتطلعا لخير قادم للأمة المسلمة؛ فتتصل قلوب المؤمنين بقلوب الشراة يدعون لهم بتحقيق الهدف، ويمدوهم بالمال والإيتاوة، وما أوتوا من خير ليتسنى للشراة المواصلة، وتحقيق الغاية المأمولة منهم، كذلك تزرع هذه الهجمات رعبا وقلقا في قلوب الأعداء، فلربما رجعوا إلى رشدهم وهادنوا على عدم الظلم والجور، وقد لا يكون إلا مجرد إرعاب وإرهاب للعدو كما يقول الشيخ علي يحيى معمر: "إن هذا التنظيم يشبه أن يكون شغبا على دولة ظالمة، مسلمة أو مسلمة راضية بالذل؛ حتى لا تطمئن إلى تنفيذ خططها الجائرة، وقد لا تكون لها نتائج غير هذا القلق الذي يخيم على الظالمين" ^٧ أو سلموا القياد لأهله من أهل الحق، فتقام إمامة ظهور، هذا إن كان المجتمع مهينا لذلك بحيث هو من يقف مع الشراة لتنصيب الإمام بمشورة العلماء والزعماء المخلصين، وسيأتي بيان ذلك في مبحث الظهور؛ إذن فالشراة هم كالجسر لإمامة الظهور. وإذا تكلمنا عن أهداف الشراء في نقاط فهي كالآتي:

- تغيير وجهة حكم ظالم إلى حكم عادل سواء بالقضاء عليه كليا وإقامة إمامة ظهور، أو مجرد تغيير بعض قوانينه الجائرة، وهذه تحكمه الظروف والاجتماعية والأحوال السياسية.
- يقطع المواصلات، والإمدادات عن السلطات الظالمة.
- ضرب معاقل الأعداء وحصونهم والاستيلاء على مخازن الأسلحة.
- القيام بأعمال شغب ومناورات في مراكز العدو؛ لئلا يهدأ لهم بال.
- زعزعة هيبة الحكم الجائر بضرب مكامن القوة لديه.
- القيام بأعمال حراسة المدن في الليل والنهار، استعدادا لمباغطة العدو.

من خلال الأهداف التي ذكرناها يتبين لنا أن الشراة لا يظهرون إلا في حالة طارئة، وحاجة ملحة إليهم؛ بسبب سطوة أهل الظلم على الناس، وتعطيل لشرع الله، وتلاعب

^٧ معمر، علي يحيى: الإباضية في موكب التاريخ، مرجع سابق، ج ١، ص ٧٧.

بأموال وحرقات ومقدرات البلد، وقد فشلت جميع المحاولات السلمية في دحض هذا الجور، فعندها لا بد لسيف الحق أن يتصرف لمعالجة الظلم بطريقة تحفظ الدعوة إلى الله، وتذكر الناس بأن للحق نورا لا ينطفئ مهما اسود ظلام الباطل؛ ولذا كان هذا المسلك -مسلك الشراء- العلاج الأخير والترياق الوحيد لإنهاء هذا المرض، واجتثاث هذه الجرثومة من الأمة المؤمنة؛ ليتسنى لها العيش في أمان الله، وتعبث الله وهي مطمئنة، وأنه لا خروج لهم وفي قلبهم ذرة من طمع بالدنيا وجاهها وسلطتها. يقول الإمام أبو بلال مرداس بن حدير التميمي -رحمه الله- مبينا أهداف الشراء ودوافعه في جملة جزلة: "((إنك تخرج جهادا في سبيل الله وابتغاء مرضاته لا تريد شيئا من أعراض الدنيا ولا لك في الدنيا حاجة ولا لك إليها رجعة، أنت الزاهد في الدنيا المبغض لها الراغب في الآخرة الجاهد في طلبها الخارج إلى القتال لا غيره، فاعلم أنك مقتول وأنك لا رجعة لك إلى الدنيا فارجع إلى ما وراءك فاقض من الدنيا حاجتك ولبانتك، وراقب دينك استر نفسك وجد في أمرك بالفراغ وودع أهلک وأعلمهم أنه لا رجعة لك إليهم ، فإذا فرغت بايعتك))" ^٧ .

^٧ النامي، عمرو خليفة: دراسات عن الإباضية، رسالة دكتوراة، جامعة كومبرج، ١٩٧١م.

المطلب الثاني: منبع فكر الشراء، وبداية تأسسه

بعدما تحكم الظلم في البصرة على يد بني أمية، وبعدما ضيق الخناق على المؤمنين هناك، خاصة من هم على الفكر الإباضي، خرج أبو بلال مرداس بن حدير التميمي شاريا، وقال في خطبة ما زالت تتناقلها الركبان إلى يومنا هذا، يبين فيها دوافع خروجه: "والله لا يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين تجري علينا أحكامهم مجانفين للعدل، مفارقين للفضل، والله إن الصبر على هذا لعظيم، وإن تجريد السيف وإخافة السبيل لعظيم، ولكننا نشد عنهم ولا نجرد سيفاً، ولا نقاتل إلا من قاتلنا" ^٤ وقال أيضا: "إنا لم نخرج لنفسد في الأرض ولا لنروع أحداً، ولكن هرباً من الظلم، ولسنا نقاتل إلا من يقاتلنا ولا نأخذ من الفيء إلا أعطياتنا" ^٥ هذه الخطبة هي التي عول عليها الإباضية في قضية الشراء، وأخذوا المبادئ والأفكار الأساسية للشراء منها بعد أن صارت واقعا حقيقيا عاشه أبو بلال وأصحابه، لا مجرد كلمات قالها أو أنها تنظير لأفكار يدين بها ومبادئ يعتنقها، فأصبح لدى الإباضية إرثا خصباً قد استندوا عليه، فقد بين الإمام أبو بلال سبب خروجه وتبنيه لفكرة الشراء وتطبيقها في تلك الفترة الزمنية بالذات، فهو ما خرج إلا بعدما ضج المسلمون من الظلم، وما خرجوا إلا لأنهم رفضوا أساسا الاستسلام والخضوع لهذا الواقع المر، وقد أطر هذا الخروج بأطر العدالة، بين أولا بأنهم لن يقاتلوا إلا من قاتلهم، وأنهم لن يروعوا الآمنين، ولا يقطعوا الطريق على المسالمين، ولا يفسدوا في الأرض، وأنهم خرجوا هرباً من الظلم، ولا يأخذوا أموال أحد إلا أعطياتهم وحسب، بعكس بعض الفرق التي شذت عن الطريق بعد أن عانت فعلاً من الظلم، لكنها خرجت انتقاماً وبطشاً، لم تراع شيئاً من الأطر والحدود المسموح بها في ظروف كهذه، فراحت تقتل المحارب والمسلم، فغالوا وأسرفوا وخرجوا عن نطاق العدالة الإسلامية والقانون الرباني المسموح به حين الظلم: ((ولا

^٤ هو الإمام الشاري أبو بلال مرداس بن حدير التميمي، أول من أعلن الشراء من الإباضية ضد ظلم بني أمية، وقد شاركه أربعون رجلاً، كان له دور بارز في نشر الدعوة في البصرة، وكان صديقاً حميماً للإمام جابر يتبادلان الأفكار والخطط للحفاظ على الدعوة، قتل شهيداً ومن معه بأسك عام ٦١ هـ من قبل أتباع عبيد الله بن زياد الأموي وهم يصلون صلاة الجمعة. "انظر: الشعيلي، التاريخ العماني، مرجع سابق، ص ٥٤٦.

^٥ المرجع نفسه.

تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا))^٧. أما منهجية أبي بلال وأتباعه، التي صارت بعد ذلك أساس فكر الشراء عند الإباضية، كانت بعيدة كل البعد عن الغلو والتهور، وقد كتب لها القبول والبقاء، ونفذت في أطوار تاريخية عديدة، بنفس الأسس والقواعد التي سار عليها الشاري الأول لدى الإباضية وأول منظر ومطبق لفكر الشراء الإمام أبو بلال مرداس بن حدير التميمي.

وقد ظهر هذا جليا في عهد الإمام أبي حمزة الشاري^٧ الذي خرج شاريا هو الآخر، وجاهد في بلاد اليمن ثم الحجاز السلطة الجائرة التابعة لدولة بني أمية، حتى استشهد في بلد الحجاز سنة (١٣٠هـ)، وقد سار على نفس المنهج الذي سار عليه الإمام أبو بلال مرداس بن حدير، فقد اتخذ جميع الأسباب أثناء دخوله لمكة لمنع أي اشتباك أو إراقة لدماء، فاختار دخولها أيام الحج، وقد كتب الله له ذلك، فدخلها، وسلمت له مكة القياد دون قتال، وحاول أن يدخل المدينة كذلك دون أن يرفع سيفاً في وجهه مسلم، ولكن أهل المدينة للأسف أبو إلا أن يقاتلوه، ومع استنفاد جميع المحاولات السلمية معهم حاربهم دفاعاً عن أصحابه ومبادئه، فلما كتب الله له النصر، وأسر بعض المحاربين التابعين لحكومة بني أمية أمره بعض أصحابه بقتلهم حتى لا يكيدوا له المكائد ويهموا بالانتقام إن هو أطلق سراحهم، لكنه رفض ذلك وقال: "لا أفعل ولا^٨ أخالف سيرة أسلافنا"^٧ يعني: أبو بلال وأصحابه، وبين أن: "الناس منا ونحن منهم إلا ثلاثة: مشركاً بالله، عابداً وثن، أو كافراً من أهل الكتاب، أو متسلطاً في الأرض يحكم في رقاب الله

^٧ (الإسراء: ٣٣)

^٧ هو: أبو حمزة الشاري- المختار بن عوف السليمي-، صاحب الإمام طالب الحق عبدالله بن يحيى الحضرمي؛ خطيب مصقع؛ وله الخطب المشهورة المأثورة، روى بعضها مالك بن أنس؛ وقال عند روايته: خطبنا أبو حمزة المختار بن عوف خطبة حيرت المبصر وردت المرتاب، انظر: السالمي، عبدالله بن حميد، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، ت أبو إسحاق أطفيش، مطبعة الشباب، القاهرة، ج ١، ص ١٣.

^٧ الأصفهاني: أبو الفرج، الأغاني، ط ١، تحقيق: يوسف البقاعي وغريد الشيخ، بيروت، لبنان، مؤسسة الأعلمي

للمطبوعات، سنة: ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، ج ٢٣، ص ١٩٠.

بغير ما أنزل الله" ^٧ وقد خطب أبو حمزة الكثير من الخطب، وبين فيها منهجه وسبب خروجه، فلم يخرج قيد أنملة عن سلفه الصالح رضوان الله عليهم جميعا.

هذا بالإضافة إلى تعويل كثير من الإباضية أساسا على أن المنع الأول لفكر الشراء كان القدوة والمثل الأعلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- كما أسلفنا في مشروعية هذا المسلك، حينما ثار في قضية عثمان لما نشرت عنه قريش بأنه قد قتل، فقد أعلن في الصحابة أن من يبايعني على حرب قريش، على رغم قتلهم عددا وعتادا، فسميت هذه البيعة ببيعة (الموت)، وبيعة (الشراء)، كذلك هناك بعض مبادئ الشراء أخذت من أحداث وقعت في عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- فتأسى بها الإباضية واعتبروها من المبادئ الأساسية للشراء، منها: لما وصل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة أربعون مؤمنا؛ نزلت الآية: " فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين". ^٨ فصار من أهم شروط الشراء أن لا يقل العدد عن أربعين رجلا.

^٧ الشعيلي، التاريخ العماني، مرجع سابق، ص ٥٤٨.

^٨ الحجر: ٩٤، ص ٢٦٧.

المطلب الثالث: من مواطن الشراء، وأثرها

١- أبو بلال مرداس بن حدير (ت ٦١١هـ / ٦٨٠م):

خرج أبو بلال مرداس بن حدير التميمي هو وأصحابه شاريا في سبيل الله بعد أن خرج من سجن ابن زياد، ورأى من ابن زياد العزيمة في تتبع الشراة والكيد بهم، فقال قولته المعروفة: "إنه والله لا يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين، تجري علينا أحكامهم، مجانفين للعدل، مفارقين للفضل، والله إن الصبر على هذا لعظيم، وإن تجريد السيف واخافة السبيل لعظيم، ولكننا نشد عنهم، ولا نجرد سيفاً، ولا نقاتل إلا من قاتلنا"، فمضوا إلى بلد يقال لها "آسك" فندب إليهم أسلم بن زرة الكلابي في رأس ألفي رجل، ولما وصل إليهم ودار بينهم الحوار، ورأى منهم قوة الشكيمة، وثبات العزيمة، واستقامة السيرة، أصابه الخوف منهم، وهزم جيشه، ورجع إلى ابن زياد، وأخبره بما جرى، فغضب عليه وذم فعله، "وقال ويحك أتمضي في ألفين، وتهزم حملة من أربعين رجلاً؟ وكان مسلم يقول لأن يذمني ابن زياد وأنا حي أحب إلي من أن يمدحني وأنا ميت"، ثم أرسل إليهم عباد بن أخضر، وحضر له جيشاً قوامه أربعة آلاف مقاتل، ولما التقى بأبي بلال وأصحابه قال له أبو بلال: "ما الذي تبغي؟ قال أن آخذ بأفئلكم ونردكم إلى الأمير عبيد الله بن زياد، قال أو غير ذلك؟ قال وما هو؟ قال أن ترجع، فإننا لا نخيف سبيلاً، ولا ندع مسلماً، ولا نحارب إلا من حاربنا، ولا نجبي إلا ما حمينا"؛ لكن عباداً رفض ذلك وقتلهم فلم يتمكن منهم، فلا زال القتال حتى حضرت صلاة الجمعة، فقال لهم أبو بلال هذا وقت صلاة فدعونا نصلي الجمعة وتصلون، فوافقوا على ذلك، ولكنهم غدروا بهم غدر المنافقين بالمؤمنين، فما إن جعلوهم يصلون، حتى وثبوا عليهم وقتلوهم جميعاً بين ساجد وراكع لله - رحمهم الله جميعاً -، وأخذوا رأس أبي بلال إلى عبيد الله بن زياد، ومثلوا به مثله لا يرتضيها

^٨ الدرجيني، أحمد بن سعيد، طبقات المشايخ بالمغرب، ت إبراهيم طلاي، دط، دن، دم، دت، ج ٢، ص ٢١٨.

^٨ اسم الموضع الذي قرب أرجان، آسك، وهو الذي ذكره الشاعر بقوله: أألفا مسلم فيما زعمتم..... ويقتلهم بأسك أربعوناً. الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، ط ٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م، ج ١، ص ٥٣.

^٨ الدرجيني، الطبقات، ج ٢، ص ٢٢٠، مرجع سابق.

^٨ المرجع نفسه، ص ٢٢١.

الإسلام، ويأنفها الضمير الحي من بني الإنسان، وهكذا رحلوا خيرة البشر، فرسان الاباضية، ضحية اعلانهم الخروج عن حكومة الفاسقين، وضحية صدق عبادتهم لرب العالمين، " وما نعموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد" .^٥

٨

أثر شراء أبي بلال مرداس بن حدير وأصحابه:

إن أعظم أثر خلفه شراء أبي بلال وأصحابه، هو ذاك الصدق الناصع في عقيدتهم، والحب المتفاني لربهم، والتطبيق الدقيق لمنهجهم. وقد فروا بدينهم من الفتنة والظلم ولسان حالهم يقول: " رينا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا" ، ما جعل خروجهم في سبيل الله آية من آيات الله في الانصاف والعدل، وآية من آيات الله في الصبر والمصابرة، وآية من آيات الله في التضحية والفداء، وآية من آيات الله في رباطة الجأش وقوة الشكيمة. خرجوا ولم يسفكوا دما، ولم يعترضوا سبيلا، ولم يخوفوا آمنا، ولم يسلبوا مالا، وإنما قاتلوا من قاتلهم، وأخذوا من الفي أعطياتهم، ثم بعد هذه البراءة الواضحة، وبعد هذا الصراط المستقيم الذي سلكوه، كان مصيرهم أنهم أخذوا وقتلوا تقتيلا بين ساجد وراكع لله. وهذه القضية جعلت أهل الحق والاستقامة يزدادون ثباتا وإيمانا، وعملا وإخلاصا دون توقف في خدمة الدعوة، وما مقتل أبي بلال وأصحابه، إلا اثارة للهمم، وإيقاظ للعزائم، قال عمران بن حطان في رثائه:

يا عين ابكي لمرداس ومصرعه يا رب مرداس اجعلني كمرداس

تركتني هائما أبكي لمرزئي في منزل موحش من بعد إيناس

٧

أنكرت بعدك ما قد كنت أعرفه يا رب مرداس اجعلني كمرداس

وقد ازداد أتباع هذا المنهج السوي بعد هذه الحادثة؛ لأن الناس علمت صدق أبي بلال وحسن سيرته، وعلمت بأنه تم قتله وأصحابه وهم في صلاة، مما ازداد حب الناس لسيرته،

^٨ (البروج: ٨)

^٨ (الكهف: ١١)

^٨ الدرجيني، الطبقات، ج ٢، ص ٢٢٣، مرجع سابق.

وكرهوا سيرة من قتلوه، وازداد الأتباع كذلك؛ بفضل الدعوة السرية التي نشطت بعد استشهاد أبي بلال، ثم إن الخطبة التي تركها أبو بلال حين خروجه، وتصديقها بالعمل، صارت أعظم شاهد على تبرئة الاباضية من أفعال الخوارج: (الأزارقة، والصفورية، والنجدات)، والفرق الشاسع بينهما، وصارت بمثابة المنهج السليم لمن أُلجأته الظروف إلى سلوك مسلك الشراء، وقد احتذ الاباضية حذوها، وصار أبو بلال عندهم أول شار ومنظر ومطبق لمسلك الشراء.

٢- أبو حمزة الشاري (١٢٩هـ-١٣١هـ):

وسأعمد هنا على ذكر تفاصيل تاريخية عن حركة شراء أبي حمزة؛ كونها من أبرز مواطن الشراء لدى الإباضية، ومن أعمقها أثرا، تاركا للقارئ أن يعيش الأحداث، ويستلهم منها أثر الشراء في الدعوة، وكيف أن الشراة التزموا بقواعد الشراء وطبقوها بدقة في أرض الواقع، ولم تكن مجرد تنظير سياسي وقواعد تتناقل في الدفاتر والأذهان.

أولا: دخوله مكة المكرمة

خرج المختار بن عوف السليمي -الملقب بأبي حمزة الشاري بأمر من الإمامة الكبرى (الظهور)، التي يرأسها طالب الحق عبدالله بن يحيى الكندي- من اليمن إلى الحجاز شاريا هو وجيشه في سبيل الله، بعد أن من الله عليهم بالقضاء على سلطة الظلم في أرض اليمن، وبعد أن دانت لهم المنطقة هناك راضية بمنهجهم، فما وجدوا إلا الحياة التي عاشها الرسول -صلى الله عليه وسلم- وصحابته الكرام من عدل، ولين، ومساواة، وشورى فيما بينهم، لا فضل لقرشي على سائر العرب إلا بالتقوى ولا لعربي على قرشي إلا بالتقوى، الإمام يعد واحدا منهم وخادمهم، له ما لهم، وعليه ما عليهم، ولا يمتاز عنهم إلا بزيادة المسؤولية التي تلقى على عاتقه، لا يتوارى عنهم خلف القصور العالية، ولا يمشي بينهم بخيلائه، فهو وريث أنبياء الله الذين ما حكموا إلا بالعدل وما ارتفعوا إلا بالتواضع، بهذه السمات الحميدة لهذا الفكر النير المعتدل وفق الأصحاب وحظوا بأن يحكموا الناس في اليمن على ما يرضيهم من دينهم ويرضي الله ورسوله، والتف حوله الناس هناك وأتوه من كل صوب وحوب، فتحمس الإباضية بهذا النصر،

وفكر الإمام طالب الحق ومن معه على توسيع الدعوة، فليست اليمن هي هدفهم، وإنما هدفهم الأعظم هو الإطاحة بدولة بني أمية لما وقع منها من تسلط واستبداد؛ لذا سعى جاهدون حتى يغيروا هذا الحكم المتعسف إلى حكم إسلامي وسطي ومعتدل، وإلى تنوير عقول الناس، وبث فيهم العقيدة النقية الراسخة، والمبادئ الأخلاقية الرصينة؛ ولهذا بعد مضي شهر على النصر المؤزر في صنعاء خطط الإمام طالب الحق بإرسال جيش الشراة تحت قيادة الإمام الشاري أبي حمزة المختار بن عوف السليمي لإكمال مسيرة الدعوة إلى بلد الحجاز؛ لسببين: الأول: أن مكة مهوى الأفئدة، ومكان يأتيه الناس من شتى البقاع، فإن نجحت الدعوة هناك حتما سيتأثر القادمون من مختلف الأماكن والدول بفكرهم الناصع، وهو أمل لطلما حلموا به ليس طمعا لجاه أو سلطة وإنما دعوة إلى الله ورسوله. أما السبب الثاني: فلأن بلد الحجاز قد حكمت تحت حكم ظالم غير وبدل في شرعة الله التي أنزلها على رسوله؛ وهذا مما لا يرضاه أي مسلم ينبض الإيمان في قلبه، فضلا أن يكون إباضيا أو غيره.

تسلم المختار بن عوف زمام الأمور وتوجه بالشراة جهة مكة عام ١٢٩هـ، وكان بصحبته بلج بن عقبة وأبرهة بن الصباح الحميري، كان عدد الشراة سبعمائة رجل في بداية الأمر، ثم التحق بهم أربعمائة فرد من إباضية مكة المكرمة بقيادة أبي الحر علي بن الحصين، فأصبحوا ألفا وأربعمائة رجل، وقد اختاروا موسم الحج لئلا تكون هناك حرب ودماء، وحتى يدخلوا مباغطة من حيث لا يشعر العدو، فاتخذ جميع الاحتياطات السرية منذ قدومه من اليمن، وحتى وصوله أخيرا مكة المكرمة في اليوم الثامن من ذي الحجة ١٢٩هـ وقد دخلها من طريق الطائف، ثم توجه في اليوم الثاني إلى صعيد عرفات، فلما رآه أبو الحر علي بن الحصين هو وأصحابه أحرموا للحج وانضموا تحت لوائه، فخاف الحجيج فسألوهم ما لكم؟ وما حالكم؟ فطمأنوهم وبينوا لهم بأنهم ما أرادوا حربا ولا فتنة و"أخبروهم بخلافهم مروان^١ وآل مروان والتبرؤ منه"^٢ أي أنهم ينكرون على بني أمية تسلطهم وبطشهم وحكمهم بغير ما أنزل الله، وأن هذا ليس من الحق في

^١ الندابي، ناصر بن علي: الإمامة الإباضية في اليمن والحجاز، ط ١، مكتبة الضامري - سلطنة عمان - السيب،

١٤٤٠هـ/٢٠١٩م، ص ١٣١.

شيء، ونحن إنما جئناكم بحكم السلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم، فبلغ ذلك عبد الواحد بن سليمان الأموي ^٨ فتفأجأ بالأمر؛ إذ لم يكن يتوقع هذا الدخول من قبل الإباضية اطلاقاً، ولم يكن مستعداً له، فهادن على الصلح، فقبل المختار بن عوف مهادنته على أن يخرج عبد الواحد بن سليمان من مكة بعد انتهاء الهدنة، وكانت مدتها حتى ينتهي الحجيج من أداء مناسك الحج، فقبل عبد الواحد، فلا طاقة له بمقاومة الشراة؛ لأنه لم يكن مستعداً لذلك، حتى عاتبه أصحابه لقبوله هذا الصلح وقالوا له: "قد أخطأت فيهم، ولو حملت عليهم الحجاج ما كانوا إلا أكلة رأس..." ^٩ فلم ينصت لاتباعه وخرج هارباً إلى المدينة المنورة ومنها إلى الشام.

وبعد أن انقضى موسم الحج دخل المختار بن عوف السليمي مكة المكرمة من غير حرب ولا سفك لدماء، وبدأ يخطب خطبه البليغة في الناس يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحثهم على طاعة الله وعلى طاعة رسوله، وألا يستكينوا لظلم، ولا يطيعوا إلا من أطاع الله ورسوله، ولا يخشون في الله لومة لائم، فلا زالت خطبه تترد في أذهان الناس، وكأنهم في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-. قال الفاكهي يمتدح خطبة أبي حمزة في مكة: "فما رأي على منبر مكة أحد كان أحسن خطبة منه..." ^٩

ويقول صاحب كتاب منهج الدعوة عنها: "وما تزال هذه الخطبة تستوقف النقاد والمؤرخين والدارسين على أنها من عيون الأدب الإسلامي الرفيع..." ^٩.

^٨ "هو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، تولى الحجاز عام ١٢٩هـ، عن طريق الخليفة الأموي مروان بن محمد، انظر: الندائي: الإمامة الإباضية، مرجع سابق، ص ١٣١.

^٩ المرجع نفسه، ص ١٣٥.

^٩ الفاكهي: هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إسحاق ابن العباس المكي (من علماء القرن الثالث الهجري)، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيض، ط ٢، بيروت، لبنان، دار خضر، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص ١٤٥. انظر: المرجع نفسه ص ١٥١.

^٩ المرجع نفسه.

ثانيا: دخوله المدينة المنورة

لقد خطط الإمام طالب الحق جيدا قبل إرساله أبي حمزة إلى بلد الحجاز؛ فكانت الخطة أن يستولي أبو حمزة أولا على بلد الحجاز، وبدون اشتباك وإراقة دماء قدر الإمكان، وأن يستغل موسم الحج في نشر دعوته وإيضاح مبادئه للناس، وأن يجمع صفوف المسلمين هناك على ما مكنه الله من علم وحكمة خاصة عن طريق خطبه البليغة، التي لها دور كبير في تليين القلوب وإخضاع النفوس، ويجعلهم تحت راية واحدة، ثم يتحرك جيش بقيادة بلج بن عقبة إلى الشام لإخضاع دولة بني أمية للحق، وبالطريقة نفسها، حثهم أولا على تسليم الأمر بالطرق السلمية، فإن أبوا، يكون القتال، ولا يبدأ الإباضية بالقتال أولا كما هو معتاد في طريقتهم، إلا بعدما يهجم الخصم، حينها يكونوا قد أعذروا إليهم، ويقاثلوهم قتالا لأجل إحقاق الحق، وتمكين حكم الله، لا لشيء من حظوظ الدنيا ومتاعها؛ عندها يكون لخروجهم عذرا ولجهادهم أجرا.

وقد من الله لأبي حمزة ومن معه بدخول مكة، وضم ما حولها من قرى تحت حكمهم كالتائف، والدعوة فيها بدعوة الحق لأربعين يوما، وأصبحت المدينة لا خبر لها إلا المختار وأصحابه، خاصة بعد هروب عبدالواحد بن سليمان والي الدولة الأمية في (مكة) من مكة إلى المدينة، وإخبارهم بأن الإباضية يفكرون في الزحف نحو المدينة، ومنها إلى الشام للإطاحة بالحكم الأموي، وكانت المدينة آنذاك راضخة للحكم الأموي، مستكينة له خاصة كبار رجالها وشيوخها من قريش، وبالأخص الذين هم من بني أمية، وكذلك بعض أحفاد كبار الصحابة لما أعطوا من مكنة وامتيازات، ولهذا لم يرضوا بتسليم القياد للإباضية، وكانوا ينتظرون من يوم إلى يوم المدد الشامي لتخليصهم من أبي حمزة ورجاله.

بعد إخبار عبد الواحد بن سليمان أهل المدينة بما حصل في مكة، سافر مباشرة إلى الشام، وأخبر الخليفة الأموي مروان بن محمد بما حصل في أرض الحجاز. غضب مروان بن الحكم غضبا شديدا، وقام بعزله من الولاية، وأمر عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز أن يجهز جيشا من أهل المدينة، ويدربه على القتال، ويزحف مباشرة لمكة للقضاء على الإباضية، فما هم إلا قلة بحسب تفكيرهم، وهم بالفعل كانوا قليلين بالعدد لكنهم كانوا كثيرين بالإيمان والوحدة التي

تجمعهم وتقويهم. قام عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز بتحريض الجيش المدني على القتال وحثهم على قتال أبي حمزة ومن معه في مكة قبل أن تقوى شوكتهم، لكن جل أهل المدينة في تلك الأيام لم يكونوا أهل حرب وقتال، فهم جلهم من التجار والمزارعين والعوام وخاصة من هم نسب قريش، أما المقاتلون فقد كان أغلبهم مشاركين وداخلين في الجيش الأموي، منهم في الشام مع حاشية الدولة وعسكرها، ومنهم في الثغور وأماكن الفتوحات؛ ولذا كانوا بداية غير راغبين بالخروج والحرب إلا أن عبدالعزيز استطاع إقناعهم بطرق وأساليب محفزة منها: إغراؤهم بالمال والمناصب، وأن الجيش الإباضي عدده قليل، بإمكاننا هزيمته من أول وهلة، وربما فروا بعد أن يروا عددنا وعتادنا أصلاً؛ وبهذا تجمع حوله ثمانية آلاف رجل، وخرجوا من المدينة في أبهى زينتهم وأرقى ثيابهم، وكان يبدو عليهم اليقين التام بالنصر في هذه المعركة، استهانة بجيش المختار، فهم ليسوا أهل قتال كما أسلفنا حتى يزنوا الأمور كما هي في المعارك والحروب، وغاب عن مخيلتهم أن العبرة في النصر ليست بكثرة العدد، وإنما بوحدة العدد، وتوفيق الله يقول تعالى: "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين" سورة البقرة ٢٤٩. كما أن الجيش المدني لم يكن على قلب رجل واحد كما هو الحال مع رجال المختار بن عوف، ففي الجيش المدني -مثلاً- ظهر فيه تفضيل أشخاص على أشخاص باعتبار طائفية، كما يروي "البلاذري والأصفهاني: وكان عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز يعرض الجيش بذي الحليفة، فمر به أمية بن عنبسة بن سعيد بن العاص، فرحب به، وضحك إليه، ومر به عمارة بن حمزة بن مصعب بن الزبير، فلم يكلمه، ولم يلتفت إليه، فقال له عمران بن عبدالله بن مطيع - وكان ابن خالته، أما هما ابنتا عبدالله بن خالد بن أسيد -: سبحان الله! مر بك شيخ من شيوخ قريش، فلم تنظر إليه، ولم تكلمه، ومر بك غلام من بني أمية فضحكت إليه ولاطفته! أما والله لئن التقى الجمعان لعلمت أيهما أصبر! ...^٩. كذلك كانت دوافعهم وأهدافهم من الحرب غير موحدة؛ فمنهم من كان يريد الانتقام من جيش المختار، ومن أهل الطائف الذين هادنوا وسالموا كما يروي أحد القرشيين المشاركين في الجيش المدني ذلك: "لو شاء أهل الطائف لكفونا أمر

^٩ الندابي، الإمامة الإباضية، مرجع سابق، ص ١٣٩.

هؤلاء، ولكنهم داهنوا في أمر الله تعالى، والله إن ظفرنا لنسيرن إلى أهل الطائف، فلنسببهم...^٩ " ومنهم من كان طامعا بالمنصب والمال، ومنهم من كان يظن أن هؤلاء فرقة خارجة ليس لها حق فيهم فيجب قتالهم، ومنهم من خرج لأهداف ومطامع أخرى... بعكس جيش أبي همزة فقد كانوا جسدا واحدا، يحركهم هدف واحد وهو " إعلاء راية الحق والإطاحة بالظلم"، وتربطهم عقيدة واحدة وفكر واحد، ولذا كان لجيشهم وزن وقوة لم يكن يدركه جيش المدينة.

لقد أعد عبدالعزيز بن عمر الجيش واستعرضه في ذي الحليفة قبل التحرك نحو مكة المكرمة وجعل على رأسه عبدالعزيز بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان، ورجع هو إلى المدينة، وتوجه الجيش إلى مكة حتى أتوا قديدا^٩ وكانت الساعة ليلا، فباتوا فيها ونوخوا بها أياما، فوصل الخبر إلى المختار بن عوف، فبدأ يعد جيشه معنويا وماديا، واضطر للخروج من مكة بنفسه وترك فيها إبرهة بن الصباح الحميري، وبعد ثلاثة أيام من السير وصل المختار وجيشه منطقة قديد في يوم الخميس ٩/ صفر/ ١٣٠هـ، الموافق ٢٩/ تشرين الأول/ ٧٤٧م، وكان قوام جيشه لا يتجاز ألف جندي على أرجح الروايات.^٩

أرسل المختار بن عوف بلج بن عقبة في رأس ثلاثين رجلا من الإباضية لمحاصرة جيش المدينة قبل بدء القتال، وكان هذا هو منهجهم؛ لا يقاتلون حتى يعرضوا ما عندهم أولا، ويبينوا للطرف الآخر بأن القتال لم يكن غايتهم لكنهم يفعلوه اضطرارا فحسب إن أصر الخصم على المناجزة

^٩ المرجع نفسه

^٩ " قديد تصغير القد من قولهم: قددت الجلد أو من القد بالكسر، وهو جلد السخلة أو يكون تصغير القدد من قوله تعالى: ((طرائق قددا)) وهي الفرق. وسئل كثير فقليل له: لم سمي قديد قديدا؟ ففكر ساعة ثم قال: ذهب سيله قددا، وقديد اسم موضع قرب مكة" انظر: الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٣١٤، مرجع سابق.

^٩ " لم تذكر المصادر التاريخية بالتحديد عدد جنود المختار بن عوف السليمي التي خرجت معه من مكة إلى المدينة، ولكن الذي علمناه أن عدد أفراد الجيش الإباضي في مكة عند دخول المختار بن عوف بلغ ألف ومائة جندي بعد انضمام أبي الحر علي بن الحصين وأتباعه في هذا الجيش، ولا يمكن أن يترك المختار بن عوف مكة المكرمة بدون حامية تعين إبرهة بن الصباح الحميري على إدارتها، فلعله ترك معه مائة أو يزيدون، ليصبح عدد الجيش الإباضي بالتقريب في معركة قديد بين التسعمائة والألف" انظر: الندابي: الإمامة الإباضية، مرجع سابق، ص ١٤٠.

والقتال. فرد الجيش المدني بأبشع الردود على بلج بن عقبة، ومنهم من سب وشتهم وقالوا له: "ارجع إلى أصحابك فليس بيننا وبينهم إلا السيف"، فرجع بلج بن عقبة، وأخبر المختار برغبة أهل المدينة بالقتال، وأنه لا مجال لقبولنا بينهم.

قام المختار بن عوف يخطب في الجيش، وبعضهم ويذكرهم بالله، وأن يصبروا حين اللقاء، وأن يكثرُوا من قراءة القرآن، وألا يرتكبوا شيئاً لا يرضي الله ورسوله، وأخبرهم بأن لا يبدأوا القتال حتى يبدأ الجيش المدني بالقتال، فلما رمى واحد من جند المدينة سهماً وأصاب به أحد أصحاب المختار قال لهم: "شأنكم الآن بهم فقد حل قتالهم"^٩، فالتحم الجيشان، وحمي الوطيد وقاتل أصحاب المختار قتال رجل واحد، حتى كثر القتل في جيش عبدالعزيز بن عبدالله، وبدأ يتقهقر شيئاً فشيئاً نحو الوراء، ثم اندحر أخيراً، وسقطت راية قريش التي كان يحملها إبراهيم بن عبدالله بن مطيع، وفر قائد جيش المدينة عبدالعزيز بن عبدالله لما رأى المعركة قد انقلبت عليهم، وأن الخسارة حاصلة لا محال؛ وبهذا انتصر الإباضية، ولاحت رايات النصر لهم رغم قلة عددهم وعتادهم، إلا أن الله ثبتهم وأعانهم، ورجع رجالات الجيش المدني الناجون من المعركة إلى المدينة، حتى أن بعض الإباضية المتحمسين أراد تتبعهم، ولكن الإمام أبا حمزة منعهم من ذلك، وأشار أبو الحر- علي بن الحصين- على الإمام بقتل الأسرى، ورفض الإمام أشد الرفض، وقال قولته المشهورة: "فإن أظهرنا الله على عدونا وهزمهم لنا لم ننسف داراً ولا نغنم مالاً ولا نسب عيلاً ولا نتبع مولياً..."^٩.

ثم توجه أبو حمزة الشاري وجيشه إلى المدينة المنورة بعد هذا النصر الكبير، ودخلها يوم الإثنين ١٣ / صفر / ١٣٠ هـ الموافق ٣ / تشرين الثاني / ٧٤٧ م. وأقام فيها رايته، وبدأ يخاطب القلوب بخطبه البليغة كالتي في مكة من على منبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى "روى بعضها مالك بن أنس؛ وقال عند روايته لها: خطبنا أبو حمزة المختار بن عوف خطبة حيرت المبصر وردت المرتاب؛ يعني أن المبصر في دينه المخالف لأبي حمزة صار بعد سماع خطبته

^٩ الندابي: الإمامة الإباضية، مرجع سابق، ص ١٤٢.

^٩ المرجع نفسه ص ١٤٥.

محتارا غير مبصر لما سمع فيها من الحجج الباهرة، والبراهين القاهرة الناقصة لما هو عليه من سوء الاعتقاد، وأن المرتاب في مذهبه رجع بسماع خطبة أبي حمزة إلى مذهب الحق، وترك ما كان عليه من الريب".^٩

هذا؛ وإن كان من أثر لإمامة أبي حمزة في الحجاز فهو: أنها أسهمت بتعريف الناس بالمنهج الإسلامي القويم، خاصة ما يخص نظام الحكم، بحيث لا يحتكر في قبيلة معينة، ولا يكون الحكم إلا للصالحين من عباد الله، كما أسهمت بتعريفهم المبادئ الأساسية التي يدعو له الشرع الحنيف من عدل ومساواة وشورى بين المسلمين، وبينوا لهم بأنها تجلت في الفكر الإباضي، وأنها فكر مغاير تماما عن فكر الخوارج كما ظنوا بهم أول مرة، وقد ظهر ذلك في تعاملهم وحسن سيرتهم مع الناس، وأثبت أبو حمزة ذلك في خطبه التي ألقاها في مكة والمدينة التي كان لها أثرا بالغاً في توضيح المبادئ التي يدعو لها الفكر الإباضي، وقد خلدت هذه الخطب إمامة أبي حمزة؛ لما كان لها من قوة وبلاغة في سبكها وقوة وشجاعة في إلقائها وصدق ويقين في قلب قائلها، وكان لها أثرا في انتهاج بعض الناس منهج أبي حمزة كما تبين ذلك في وصف مالك بن أنس: "حيرت المرتاب وردت المبصر". وإن شراء أبي حمزة كذلك - وإن لم يسقط الدولة الأموية - كان السبب الرئيس لإسقاطها؛ لأن الدولة الأموية صرفت أقوى فرسانها في مقاتلة أبي حمزة، بينما كانت بحاجة لهم في رد هجوم بني العباس الذي بدأ بثوراته في خراسان؛ الأمر الذي سهل على الدولة العباسية إسقاطها. يقول الندابي: "هذه الإمامة كانت من أسباب سقوط الدولة الأموية؛ وذلك بسبب الذي أرسل لإسقاطها، في حين أن خراسان كانت أحوج إلى هذا الجيش؛ لتعيد سيطرتها على الأوضاع هناك بسبب ما تثيره الدعوة العباسية من فتن وقلقل".^{١٠}

ويتبين لنا كذلك صدق الهدف الذي خرج لأجله أبو حمزة فهو ما خرج طمعا في ملك، ولا طلبا لجاه، ولا لشيء من مطامع الدنيا؛ إنما خرج طمعا في رفع الظلم عن الناس، ورد الحقوق

^٩ السلمي، تحفة الأعيان، مرجع سابق، ج ١، ص ١٣.

^{١٠} الندابي، الإمامة الإباضية، مرجع سابق، ص ٢٢٠.

إليهم، وتحقيق مبدأ العدالة والمساواة والشورى في الحكم، لا فرق فيه بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، ولا فضل فيه بين قرشي وغير قرشي إلا بالتقوى. بغض النظر عن المذهب الذي كان يحمله، فما كانت دعوته لأهل مكة والمدينة دعوة قبلية أو مذهبية؛ وإنما دعوة إلى الله ورسوله، ويتضح ذلك من خلال خطبه التي ألقاها، فكان كثيرا ما يشير ويذكر بسيرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وسيرة أصحابه فهو يدل على أن المذهبية لم تكن في ذهنه أصلا؛ وإنما ظروف الفرق و الانقسام هي من حتمت عليهم التسمية والتمييز بمذهب معين، شأنها شأن الأسماء للأفراد، ضرورة للتمييز وليست معيارا يتفاضل بها عند الله؛ إنما المعيار هو "عمل الفرد"، ففهم من فهم ذلك وهداه قلبه إلى ضرورة الرجوع إلى الحق، مهما كان المذهب الذي يحمل هذا الحق وعاند من عاند، وعد أصحاب أبي حمزة أعداء لهم؛ كونهم من فريق غير فريقهم.

المبحث الرابع: الكتمان

المطلب الأول: تعريف الكتمان

أولاً: الكتمان لغة

"الكتمان: نقيض الإعلان، كتم الشيء يكتمه كتما وكتمانا وكتتمه وكتمه؛ قال أبو النجم: وكان في المجلس جم الهذرمه، ... ليثا على الداهية المكتمه"^١.

ثانياً: الكتمان في اصطلاح الإباضية

هو رابع مسالك الدين عند الإباضية، وهو أدنى درجات الجهاد في سبيل الله، يضطر فيه أصحاب الدعوة والقائمون على صلاح الأمة، من العلماء والزعماء ومشايخ العلم وأهل الفضل إلى كتمان أمرهم، وانعزالهم عن أنظار السياسة الظالمة، بعد أن تضعف قوتهم أمام سلطتها الجائرة، ويعجزوا حينها عن رد الظلم، وإنكار المنكر علناً؛ خوفاً من البطش بهم، والكيد عليهم، أو القضاء على دعوتهم إن هم تهافتوا جميعهم في عناد هذه القوى جهراً؛ ولذا يكتمون دعوتهم وخلافهم مع الحكومات التي لها أذرع في كل مكان، ويوجهون طاقاتهم ونشاطهم في هذه المرحلة إلى إصلاح المجتمع، وإعداد حملة العلم والدعوة لمرحلة يأملون فيها أن يكونوا أقوياء ظاهرين، وهي مرحلة الظهور وذلك بعد أن تسنح الفرصة لهم، وتكون الأوضاع السياسية والاجتماعية مناسبة لهذا الأمر العظيم، وإلا فهم مستمرين في مرحلة كتمانهم معذرة إلى الله، وبراءة لدمتهم ومسؤوليتهم أمام الله حينما يسألوا ماذا فعلتم بعلمكم ودعوتكم إلى الله؟.

"يقول الشيخ علي يحيى معمر: فإذا رضيت الأمة بالذل، واستسلمت للظلم، وجرى عليها حكم الطغاة، ولم يبق فيها من يثور لكرامة الإسلام المهذرة، ولا لشرف الرسالة التي أعزت الإنسانية، وتغلب حب الدعة على كل فرد، وركن الجميع إلى الراحة، فلم تتكون حتى الفدائية

^١ ابن منظور: لسان العرب، مصدر سابق، ج ١٢، ص ٥٠٦، مادة: "كتم".

التي تقض مضاجع الظالمين، وتذكرهم أن حكمهم لن يقر، وأن المقاومة لا تزال هي أمل المؤمنين، وأنهم سوف يحاسبون أمام الله والأمة حساباً عسيراً. إذا ضعفت الأمة حتى عن هذه المرتبة،^١ أصبحت تحت التنظيم الأخير، تنظيم الكتمان.^٢

إلا أن الإباضية في يومنا هذا لا يبدو أنهم يفكرون في الظهور بمعناه السابق؛ لأن الظروف المعاصرة مختلفة تماماً عما كانت عليه سابقاً، ووجود سلطة إسلامية غير متعسفة ولا متكبرة تغنيهم عن الخوض في هذا الأمر، ما دامت تقوم بحقوق الناس، والعدالة الاجتماعية، والمساواة بينهم، والوسطية والحرية، وتعمل بمبدأ الشورى، بل تجدهم عوضاً عن هذا؛ يصرفون جهدهم وعلمهم في إقامة المراكز العلمية والتربوية، والمدارس الإسلامية، وإنشاء الجمعيات الإنسانية، والمؤسسات التعاونية، والفرق الخيرية، والاهتمام بطلبة العلم في مختلف المؤسسات التعليمية، الخاصة منها أو الحكومية، والسير بالمجتمع نحو صلاحه في أمر دينه ودنياه. ونستطيع أن نقول: بأن هذا من الكتمان المعاصر لتشابهه مع الكتمان السابق في الأعمال ففي كتمان الإباضية السابقين كانوا يركزون نشاطهم على أمرين:

"الأول: اهتمامهم بتنظيم المجتمع الداخلي بما يصلح أمر دينهم ودنياهم؛ فتراهم يسعون جاهدين على إقامة كل نشاط يعينهم على الرقي بالمجتمع في المجال الديني والاجتماعي والتربوي والاقتصادي.

الثاني: الاهتمام بالعلاقات الخارجية مع مختلف الطوائف والمذاهب."^٣

وهو نفسه ما يحدث في الوقت المعاصر مع التجديد في الأفكار الإصلاحية والدعوية، مثل: فن الإنشاد المونتنج في الاستوديو لزيادة صفاء الصوت وحسن الأداء، وقد ساعد كثيراً في بث الأفكار الحميدة في قلوب الناس، وغيرها من الفنيات التي لم تكن في الرعيل السابق. وهذا إن دل فإنما يدل على سلاسة هذا الدين أولاً، وتواكبه مع مختلف العصور، واحتضان المذهب الإباضي ثانياً لمثل فكر "الكتمان" بحسب الظروف والأحوال، والتجديد فيه مع كل عصر

^١ معمر علي يحيى: الإباضية في موكب التاريخ، مرجع سابق، ج ١، ص ٧٨.

^٢ انظر: عدول جهلان، الفكر السياسي عند الإباضية، مرجع سابق، ص ١٩٥.

جديد، حتى تبقى دعوة الله حية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فالمحافظة على الدين هو المبدأ الأساس لمسلك الكتمان وهو الذي يحرك الأنشطة الدينية والاجتماعية في هذه المرحلة، هو العنوان الرئيس، والهدف الأسمى، حتى قالوا: "من ضيع دينه فليس جاريا على حكم الكتمان" ^١. ثم يأتي بعد ذلك المحافظة على المجتمع، فهو نتاج المحافظة على الدين وثمرته، يحافظ عليه في الشكل والمضمون؛ الشكل من حيث المؤسسات بشتى أنواعها، من المؤسسات الأسرية والعشائرية، ومجالس أعيان البلد والمساجد وغيرها، والمضمون من حيث المحافظة على التراث، والعادات والتقاليد الحميدة، والقيم الحسنة، ولا ينسى الاهتمام بالجانب الثقافي ليزيد من همة المجتمع ويشحذ عزائم أفراد، فيركز القائمون بالنشاط الثقافي على تنشئة الناشئة وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم، وتلقينهم أصول المذهب، وكذا يهتم المثقفون والباحثون بدراسة أصول المذهب وفروعه، والتفنن والإبداع في كتابتها، ليتسنى بعد ذلك نشرها وقراءتها حتى تبقى خالدة تستفيد منها الأجيال المتعاقبة، ليبقى الفكر مستمرا لا يضمحل ولا يفنى بمرور الزمن كما فنت بعض الأفكار والمذاهب؛ لأنها لم تلق تبعا أو مؤلفين فيحيوا مذهبها، أو ينعشوا فكرها. هذا مع ضرورة التواصل مع المذاهب الأخرى وقراءة فكرها وأصولها، ومحاولة التسديد والتقارب بينها ونبذ أسباب الخلاف المذهبي، ومحاولة توحيد الأمة صفا واحدا تجمعهم عقيدة لا إله إلا الله محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

^١ المرجع نفسه ص ١٩٦.

المطلب الثاني: الإباضية ومخالفاتهم في مرحلة الكتمان

إن المتتبع لتأريخ الإباضية في مرحلة الكتمان يجد بأن العلاقة بين الإباضية ومخالفهم ليست على وتيرة واحدة؛ فهي تختلف باختلاف الزمن والأحوال، تنغلق في زمن، وتفتح في زمن آخر، "يقول الشيخ أبو الربيع سليمان بن يخلف النفطي (أواخر ق ٥هـ) يوصي أتباع الإباضية: احذروا كثرة مجالس المخالفين... وتجنبوا مخالطتهم والميل إليهم وكثرة مطالعة مؤلفاتهم وحذروا من ذلك سواكم..."^١، "وقد غضب بعض مشايخ الإباضية على ابن خلفون (أواخر ق ٦هـ) لأنه كان شغوفاً بمطالعة بعض كتب المخالفين ككتب الأشراف"^٢. ولو جئنا وتكلمنا عن حقيقة هذا الانغلاق وإلى أي حد هو؟ نجد بأنه ليس انغلاقاً مطلقاً إلى حد التفوق، فلا بد من شيء من التواصل ولو بصورة غير مباشرة ليتسنى لهم معرفة ما عند الآخرين على الأقل؛ فالإباضية ما لجأوا إلى الكتمان فرارا بدينهم ودعوتهم وانتهى الأمر؛ بل هم حريصون لإيصال هذه الدعوة إلى الآخرين، فإن تعذرت في فترة الكتمان وصارت هناك معوقات وعراقيل تمنع من إيصالها كما ينبغي، فلا شك أنهم يتابعون عن كثب ما عند الآخرين، ويعدون يوما لمناظرتهم والتخاطب معهم علنا، وقد أذهب الله عنهم عذر الكتمان والتستر عن المخالفين، وأظهرهم وأوجب عليهم واجب الدعوة إليه "الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور" الحج ٤١. ووجود هذه الفجوة مع المذاهب الأخرى، وعدم الأنس إليهم لم يكن في جميع فترات الكتمان وإنما في بعض الفترات الحرجة؛ وسببها أنها حدثت في فترات، كانت فيها الصراعات المذهبية قد وصلت أوجهها، ولكي لا يتأثر أتباع المذهب بأفكار الآخرين فينتهجوا نهجهم؛ منعوا من مجالستهم، والذوبان بما لديهم، خاصة في بدايات النشأة، حينما تفرقت الأمة إلى فرق وأحزاب، فقد كانت كل فرقة تقول بأن الحق معها، وهذا ما منع حتى المذاهب الأخرى غير الإباضية أن يجالسوا غيرهم من مخالفهم؛ على أن الإباضية لم يقولوا بأن الحق محصور فيهم وحدهم وما سواهم إنما هم ضالون مضلون،

^١ عدون جهلان، الفكر السياسي، مرجع سابق، ص ١٩٨.

^٢ انظر: عدون جهلان، الفكر السياسي، مرجع سابق، ص ١٩٨.

أو أنهم كفروا وأخرجوا مذهباً من المذاهب من الملة كما فعل غيرهم؛ هذا لنذكر بأن الفجوة لم تكن بدافع عصبي مذهبي مقيت، وإنما سببه ديني؛ فهم في المقام الأول ما انتهجوا منهج الكتمان إلا ليحافظوا على دينهم وعقيدتهم مما يفسدها ويعكرها، وحتى يأسسوا لها جيداً، ويتلمذوا عليها الطلبة قبل السماح لهم بالمطالعة بما عند الآخرين، فإن علموا وهم في التأسيس بأن ذاك يحصل بمخالطة من يظنون بأنه يفسد عليهم صفو العقيدة وسلامة الدين؛ فمن الطبيعي بأن يشددوا عليه، ومن الطبيعي أن نجد هذا مبرراً لهم بأن يمنعوا تلاميذهم من قراءة كتب المخالفين في تلك الفترة الحرجة قبل البدء بكتب المذهب والتمكن منه؛ وهذا مخافة الانحراط والتأثر بهم فيؤدي ذلك إلى ضياع من يعتمد عليهم حمل أمانة هذا المذهب بما يحمله من عقيدة راسخة ومبادئ ثابتة.

أما السبب الثاني فهو السبب الحقيقي وراء كتمانهم، فضلاً عن مخالطتهم لمخالفهم، وهو الذي أغلق هذه الدبلوماسية والعلاقات الحميمة بين المذهب الإباضي والمذاهب الأخرى في تلك الحقبة؛ فهو سبب سياسي جعل الإباضية يتخذون موقفاً حذراً من الآخرين وذلك: خوف الوشاية عليهم، وكشفهم أمام السلطات المعادية لهم إن هم اطمأنوا إليهم وأنسوا لهم، مثلما حصل في زمن أبي عبيدة بن أبي كريمة التميمي الذي انعزل بدعوته ودعائه إلى المغارات والسراديب؛ ولكن رغم كل ذلك فهو على اتصال دائم بالأمصار الموالية لفكره، كاليمين والحجاز وعمان ودول المغرب وغير الموالية له؛ ليدرك ما يحاك وما يدور، وعلى اتصال بالمخالفين اتصالاً غير مباشر عن طريق العيون التي أعدها لهذه المهام، خاصة في فترة مكوثه في تلك الأماكن النائية؛ ليستفيد من كل شيء في سبيل بناء دوله التي كان ينظر إليها من بعيد، والتي تحققت له بعد ذلك عن قريب. "علما": أن "هذا التستر والاختفاء فرض عليهم بالظلم والبطش ولم يرضوه لأنفسهم اختياراً"^١.

وقد ينظر الناظر إلى هذا التستر والكتمان في تلك الفترات من أول وهلة على أنه أمر قاس وشيء لا تطيب له النفوس؛ إلا أنه ترى من وسط هذه المعاناة أجيال حملوا أمانة العلم، وأقاموا

^١ عدون جهلان، الفكر السياسي، مرجع سابق، ص ١٩٩

الدول والأمصار. فمن محاسن هذا الانعزال مثلاً: تفرغ الطلبة لطلب العلم والانقطاع له، كذلك هو فرصة ثمينة للعلماء للتأليف والتدوين؛ وبهذا فإن النشاط العلمي وحركة التدوين لم تتوقف في هذه المرحلة بل زادت وكثرت. يقول أ. محمد الشيخ بالحاج " إنه رغم تلك الوضعية القاسية المؤلمة فإن الحركة العلمية أو الفقهية لم ينلها من ذلك إلا التستر والاختفاء مع العمل الدؤوب دون انقطاع أو جهود أو اغلاق لباب الاجتهاد عند الإباضية" ^١

وقد تبذرت أغلب تلك الفجوات في زمننا هذا بفضل الله، وصارت العلاقة بين المذهب الإباضي والمذاهب الأخرى علاقة ود واحترام، وتبادل بالأفكار، وقد سعى كبار علماء المذاهب على نبذ أسباب الفرقة والاختلاف، ودعوا إلى التلاحم والاتلاف. وأولهم وفي مقدمتهم سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي - حفظه الله - وقد ذكر انفتاح الإباضية، وتطلعهم لما عند الآخرين: نجد الإباضية يعتمدون في اجتهاداتهم ومطالعاتهم وقراءاتهم على كتب المذاهب الأخرى، فنجد الإمام أبا سعيد محمد بن سعيد الكدومي جاء إلى كتاب "الأشراف" للعلامة ابن المنذر النيسابوري فعلق عليه، وكان منهجه في ذلك يورد ما يذكره العلامة النيسابوري من أقوال علماء الأسلاف في المسألة، ثم يبين بعد ذلك الإمام أبو سعيد رأي المذهب الإباضي من بين هذه الآراء وعلى أيها يعتمد" ^١ على أننا نأمل بتوافق وانسجام أكبر "وما ذلك على الله بعزيز"

حتى أن العلماء اليوم يشجعون على عدم التسرع، والخروج على الدولة القائمة ولو حصل منها بعض الظلم؛ لئلا يحصل شر أكبر منه وفتنة يصعب اطفاؤها، والصبر على ذلك أفضل؛ بشرط السعي على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتوجيه كل من حصل منه فساداً أو مظلمة، وتذكيره بالله عساه يعود ويصلح، وحث الناس على العلم والاجتهاد في طلبه والأخذ بأسباب الإصلاح الديني والدنيوي؛ بهذا يمكن للأمة الإسلامية أن تتعدل تدريجياً دون هرج ومرج حتى

^١ المرجع نفسه.

^١ الخليلي أحمد بن حمد، مناهج التشريع الإسلامي والبحث العلمي، أحمد بن حمد الخليلي، مكتبة الجيل الواعد، دط، دت، ص ٣٩-٤٠. انظر: الربحية جميلة بنت علي، إضاءات من دور الإباضية في توحيد الأمة، ط١، مكتبة الجيل الواعد، مسقط، عمان، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص ٣٥-٣٦.

^١ (إبراهيم ٢٠).

يكتب الله لها برحمته الوحدة والوئام، ويجعل توادها بين أهلها وقوتها في عدوها. يقول الشيخ علي يحيى معمر: "إذا كانت الدولة القائمة جائرة، وكان في إمكان الأمة المسلمة تغييرها بدولة عادلة دون إحداث فتن أكبر تضر بالمسلمين، فإنهم ينبغي لهم تغييرها. أما إذا كان ذلك لا يتسنى إلا بفتن وأضرار، فإن البقاء مع الدولة الجائرة، ومناصرتها في حفظ الثغور ومحاربة أعداء الإسلام، وحفظ الحقوق، والقيام بما هو من مصالح المسلمين وإعزاز كلمتهم، أؤكد وأوجب، ولا ينبغي هدم حكم قائم إلا إذا تأكدت الاستطاعة للقيام بحكم خير منه، دون حدوث ما يخشى على المسلمين أن يلحق بهم أضرارا تفوق لما هم عليه من أضرار" ^١.

^١ معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٥٩.

المطلب الثالث: من مواطن الكتمان وأثرها

إن من أبرز مواطن الكتمان وأهمها بل وأساسها في دعوة الإباضية، هي تلك التنظيمات السرية التي تحدثت في البصرة في عهد الإمام جابر بن زيد^١ (٢١١هـ-٩٣هـ)، ومن بعده الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي؛ إذ وصلت إلى أقصى درجات التخفي والتستر بمختلف الوسائل والطرق؛ لئلا تنكشف دعوتهم أمام عيون السلطات الأموية المعادية لها، بداية من عهد زياد بن أبيه والي البصرة، الذي اتخذ موقفا عدوانيا ضد الخوارج بسبب ثورتهم المتطرفة واستعراضهم، إلا أن عدواته تعدتهم إلى الجماعة المعتدلة من الإباضية؛ فلم يفرق بين دعوة قريب وزحاف، وبين دعوة أبي بلال مرداس بن حدير الذي قال عنهم: "قريب لا يقربه الله من كل خير وزحاف لا عفا الله عنه، لقد ركبها عشواء مظلمة"، يقول: لاستعراضهما^٢ وذكر عنه أنه قال أيضا: "قريب لا يقربه الله، وأيم الله لأن أقع من السماء أحب إلي من أصنع ما صنع- يعني الاستعراض"^٣، مما يدل على تبرؤ أبي بلال من صنيعهم، فهو ليس منهم، وهم ليسوا منه إلا أنه مع كل هذا أصر زياد بن أبيه على القضاء على الحورية^٤ جميعا؛ مما يدل على بطشه واستبداده، ونكايته بأهل الدعوة، فبدأ يشن حملات الإبادة ضد الجماعة المؤمنة ومن بعدها جاء ابنه- عبيد الله بن زياد- وأكمل طريق حملات أبيه، بل وأنكأ وأشد. هو الذي قتل عروة بن أدية أخا أبي بلال، وقد كان مختبئا تحت سرداب يتعبد فيه، ثم أمر بقتل أبي بلال ومن معه، فقتلوا وهم يصلون الجمعة بآسك عن طريق عباد بن الأخضر إلى أن جاء الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد كان أظلم وأطغى، يقتل بالظنة والغضب، وقد شدد على أصحاب

^١ الإمام جابر بن زيد الأزدي العماني، يكنى بأبي الشعثاء، إمام المذهب الإباضي، ولد بقرية فرق من أعمال نزوى سنة ١٨ هـ، وهو من كبار التابعين، توفي سنة ٩٣ هـ على أرجح الروايات. انظر: مجموعة باحثين، معجم أعلام الإباضية- قسم المشرق-، مرجع سابق، ص ٧٩.

^٢ البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، ط ١، دار الفكر- بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ج ٥، ص ١٧٥.

^٣ الطبري، تاريخ الطبري= تأريخ الرسل والملوك، ط ٢، دار التراث- بيروت، ١٣٨٧هـ، ج ٥، ص ٢٣٨.

^٤ نسبة إلى منطقة حروراء: وهو الموطن الذي آل إليه أبو بلال وأصحابه بعد النهروان فسموا عليه، كذلك كانوا يسمون بجماعة المسلمين وبأهل الدعوة ولم يصطلح لفظ الإباضية إلا لاحقا.

٦ جابر بن زيد دون أن يعلم أنهم أصحابه ^١، وجلدهم وسجنهم، ومن أبرز قادات الإباضية الذين سجنوا في عصره: الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي ^١، وضمام بن السائب ^١، حتى أنه سجن الإمام جابر بن زيد بعد أن شك فيه، ونفاه إلى عمان إلا أنها كانت مصدر خير لأهل عمان، وفرصة ثمينة للإمام جابر في ترسيخ وتمكين دعوته؛ هناك فكان كما أحب.

لقد كانت لهذه الظروف القاسية التي تعرض لها المذهب الإباضي بعد النهروان، سبب أساسي لسلوك الأصحاب مسلك الكتمان في دعوتهم؛ حتى وصلوا لدرجة أن يتخفوا بلباس النساء، ويحملوا فوق رؤوسهم قرب الماء، وهم في طريقهم لطلب العلم ودراسة مذهبهم والتخطيط والإعداد للدعوة. وأما مجالس العلم ففي بيوت العجائز، وتحت السرايب وداخل المغارات. إنها حالة من التقشف والشدة لم يعرف التاريخ مثيلاً لها، لكنها أنبتت زرعها، وآتت أكلها بعد حين من الزمن؛ فقامت بركتها دول في الشرق والغرب، ودامت إلى ما شاء الله، وبقت الدعوة حية محفوظة إلى يومنا هذا بحفظ الله لها، وبصبر الرعيل الأول وتضحيتهم وإخلاصهم في سبيل الدعوة إلى الله وحسن التوكل عليه.

^١ للسيرة التامة التي سلكها الإمام جابر بن زيد في دعوته وقيادته للمذهب الإباضي.

^١ هو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، بالولاء، مولى لعروة بن أديه، أصله من فارس، كان آية في الذكاء، أوتي المقدرة والكفاءة في التنظير، وحسن التدبير، سياسي محنك، وعالم جليل. عرفت الإباضية على يديه أكبر إنجازاتها في المشرق والمغرب. انظر: معجم أعلام الإباضية - قسم المشرق - مرجع سابق، ص ٤٤٧.

^١ ضمام بن السائب يكنى بأبي عبدالله: من أبرز أئمة الإباضية الأوائل، فهو من طبقة التابعين، أصله من أزد عمان، أخذ العلم عن جابر بن زيد وغيره حتى قيل أن ما أخذه عن جابر أكثر مما أخذه عنه أبو عبيدة. انظر: المرجع نفسه، ص ٢٥٢.

١- التنظيمات السرية في عهد الإمام جابر بن زيد:

لقد كان الإمام جابر بن زيد هو المرجعية العلمية والسياسية لتنظيم الكتمان، الذي سلكه الإباضية بعد حملات الإبادة والقمع التي شنّها زياد بن أبيه وابنه عبيد الله في البصرة وما حولها، ومما يدل على ذلك ما ذكره الرقيشي: "وقد بلغنا أن أبا بلال مرداس بن حدير رحمه الله وغيره من أئمة المسلمين لم يكونوا يخرجون إلا بأمر إمامهم جابر بن زيد العماني ومشورته، ويحبون ستره عن الحرب لئلا تموت دعوتهم ليكون رداءهم" ^١ وهذا نص صريح لقيادة الإمام جابر بن زيد ومرجعيته؛ إذ إن أئمة المسلمين من الإباضية كأبي بلال وغيرهم لم يكونوا ليخرجوا إلا بأمره بل ويبدلون الغالي والنفيس لأجل ستره عن السياسات المعادية للفكر الإباضي؛ حتى لا يكتشف فيقتل، ثم تقتل الدعوة معه وهي في بدايتها. ومن عجائب التضحية في ستر الإمام جابر بن زيد قصة قبر الذي اعتقلته الحكومة الأموية، فبدأ الجلاد يجلده على أمل أن يدل على واحد من المسلمين، فلم يفعل حتى أوصلها إلى أربعمئة جلدة وهو صابر ومحتسب، وقد كان شيخا كبيرا في السن، وكان الإمام جابر بن زيد قريبا منه؛ لكن الله صبره فلم يدل عليه. يقول الشماخي: "وكان شيخا كبيرا أخذ وجلد أربعمئة سوط على أن يدل على أحد من المسلمين فلم يفعل. قال جابر بن زيد وكنت قريبا منه، وما كنت أنتظر إلا أن يقول هذا هو فعصمه الله" ^١. إن وضوح العقيدة لدى المرء وبقينه بالفكر الذي يعتنقه والمحبة الصادقة للإمام الذي يرجع إليه، تجعله مستميتا في الدفاع عنها، صادقا في محبته لأهلها. يقول الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي: "لقد كان أبو بلال رحمه الله يكي في جوف الليل حتى يطبق أن يقوم، ولقد كان من تشوقه إلى إخوانه أنه يخرج من عند أبي الشعثاء جابر بن زيد بعد العتمة، ثم يأتيه قبل الصبح، فيصلي معه فيقول له جابر: "يا أخي أشفقت على نفسك. فيقول والله لقد طال ما هبت نفسي بلفاك شوقا إليك حتى أتيتك" ^١.

^١ الرقيشي: مصباح الظلام، ورقة ٢٠ب. انظر: مهدي طالب هاشم، الحركة الإباضية، مرجع سابق، ص ٦٤.

^١ الشماخي، السير، ص ٩٣. انظر نفس المرجع ص ٦٥.

^١ الحارثي سالم: العقود الفضية في أصول الإباضية، ص ١٠٧. انظر: الجعيري فرحات بن علي، رسائل الإمام جابر

بن زيد الأزدي، ط ٣، مكتبة الضامري، السيب، سلطنة عمان، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ص ٢٢.

إن هذا الأمر إن دل على شيء فإنما يدل على المحبة الصادقة بين الإمام جابر وقاداته وأتباعه، وهذا أمر ضروري؛ لأنه يخدم الدعوة السرية مباشرة؛ حيث يجعل أصحاب المذهب جميعاً رابطة واحدة، يخدمون بعضهم بعضاً، وينشرون دعوتهم وفق تنظيم محكم ورصين، يقوده إمام عالم في السياسة والدين له حق السمع والطاعة؛ فلا ينفذ أمر إلا بفتواه وأمره؛ ولذا لا نستغرب كيف أن السياسات المعادية للفكر الإباضي في تلك الآونة لم تستطع أن تتوصل إلى أن الإمام جابر بن زيد هو قائد الدعوة الإباضية، وأنه هو وراء كل أمر يقوم به أصحاب الدعوة من تدريس لأصول المذهب ومبادئه وأفكاره ونشرها للناس؛ هذا لقوة العلاقة بين الإمام والأتباع، وصدق المحبة بينهم مما جعلهم يتفانون في سبيل حمايته وكتم أسرارهم وأسرار الدعوة، ومما ينقل أن الإمام جابر بن زيد أمر بقتل رجل يدعى خردلة، كان من أفراد المذهب، فخرج عنه، وبدأ يفشي الأسرار، وتسبب في قتل جماعة منهم. يقول الجيظالي: "وكان خردلة هذا فيما وجدت من أهل هذه الدعوة، ثم خرج عنها وتركها، فجعل يطعن على المسلمين ويدل على عوراتهم فلذلك استحل جابر قتله" ^١ الأمر الذي يدل على قوة الرابطة بين الأفراد والإمام، ودقة التنظيم، وشدة التحفظ على أسرار الدعوة، فلو خرج فرد عن المذهب، ولم يبح شيئاً من الأسرار تركوه وحرية اختياره، أما إن صار عدواً لهم وبدأ يفشي أسرارهم ويدل على عوراتهم، فهذا قد أوجب الإمام جابر قتله؛ لأنه عرض الدعوة وأصحابها للخطر كما قال عن خردلة حينما سأله رجل أي الجهاد أفضل؟ قال: قتل خردلة.

لقد اتخذ الإمام جابر بن زيد وأصحابه أقصى درجات الحيلة والحذر في سبيل نشر دعوتهم، من ذلك: أنهم كانوا ينشرون العيون حول الأماكن التي يرتادونها لتدارس العلم، وكل ما له صلة بأحوال الدعوة والأوضاع السياسية للمنطقة، وعندما ينبهون بوجود خطر قادم يتركون المجلس مباشرة، ويتفرقون هنا وهناك؛ وبهذه الطرق وأمثالها تمكنوا من الحفاظ على سرية دعوتهم وبثها للناس، ولم يذكر أنهم ظفر بهم في مجلس قط كما يروي لنا محبوب بن الرحيل ذلك: "وما بلغنا أنهم ظفر بهم في مجلس قط إلا أنهم كانوا ذات مرة في عهد زياد وابنه أتاهاهم الخبر بأن الخيل

^١ الجيظالي، شرح قواعد الإسلام، ورقة ٢٦ أ. انظر: مهدي طالب، الحركة الإباضية، مرجع سابق، ص ٦٧.

تريدهم فخرجوا مسرعين وتركوا نعالهم على باب البيت الذي كانوا فيه، فجاء الشرط فنظروا إلى النعال، فقالوا للعجوز وصاحبة البيت: ما هذه النعال فقالت: مكاتب لنا يسأل الناس فيعطى النعال وغيرها، قالوا بالله ما ذلك كما ذكرته، فإن هذا موضع ريبة قال فقال بعضهم قد ذكرت العجوز ما ذكرت، فلا تعرضونا للبلاء فلعلها أن تكون صادقة، قال: فعافاها الله منهم" ^١ وكلما مروا بموقف يشكك العدو نحوهم ابتكروا طريقة جديدة في التخفي والتستر، تكون أحوط من سابقتها كما ينقل لنا الدرجيني صورة لطرق عجيبة استخدمها الأصحاب لمزيد من السرية: "يأتون المجالس أيام زياد وابنه في هيئة النساء في النقاب وغير ذلك يتشبهون بالنساء، وكان أحدهم ليحمل على ظهره جرة ماء، ويحمل حملة متاع كأنه يباع حتى يدخل المجلس" ^٢؛ مما يدل على نضوج الفكر، ودهاء العقل، وبراعة الأخذ بالأسباب في سبيل الحفاظ على أغلى ما يحملونه "الدعوة إلى الحق والاستقامة". وهكذا تمكن الإمام جابر وأتباعه من الحفاظ على سرية الدعوة، ونشرها بكل تأن وصبر وحكمة؛ فازداد عدد الأتباع، وتوسع الفكر في المنطقة، ولم يتمكن أحد من كشف حقيقة قيادته للمذهب من الأمويين حتى جاء عصر الحجاج الذي شك في أمره بعد فترة من توليه إمارة العراق، فحبسه ثم نفاه إلى عمان حيث بلده الأم، فرسخ أفكاره فيها، فصارت محضنا أساسيا للفكر الإباضي؛ وهذا يدل على براعة الإمام جابر في التكتم وإدارة شؤون المذهب دون أن يترك أثرا يدينه أو يكشف من حقيقته، وعلى إخلاص الأتباع والعمل على إخفائه عن أعين الرقباء من ذلك: أمر الإمام جابر بحرق الرسائل التي لها علاقة بسياسة المذهب بعد الاستفادة منها؛ لئلا تقع في أيدي الحكومة الأموية، حتى أن الحجاج الثقفي نفسه ظل فترة طويلة يعامل الإمام جابر بالود، وكان لكتابه زيد بن أبي مسلمة فضلا في ذلك؛ حيث كان يشيد بتواضعه وعلمه أمامه، ولم يشك الحجاج في أمر سياسته للفكر الإباضي بل وحاول استمالته لجعله قاضيا على البصرة "قال لا ينبغي أن نؤثر بك أحدا نجعلك قاضيا للمسلمين" ^١ إلا أن الإمام جابر رفض ذلك وتهرب

^١ الدرجيني، طبقات الإباضية ١، ص ١٠٧. انظر: مهدي طالب، الحركة الإباضية، مرجع سابق، ص ٦٦.

^٢ مهدي طالب، الحركة الإباضية، مرجع سابق، ص ٦٦.

^١ المرجع نفسه ص ٦٨.

منه بأسلوب حكيم فقال له: "يقع بين المرأة وخادمها شر فلا أحسن أن أصلح بينهما" ^١ تظاهرا منه بعدم قدرته على سياسة الرعية، وذلك حتى لا يضطر للعمل تحت سلطة الحجاج تورعا منه وزهدا، وحتى ينفي الشكوك عنه فلا يطرق في قلب الحجاج بأن الإمام جابر بن زيد سياسي منحك صاحب قيادة وإدارة بعدما سمع أنه لا يحسن الحكم بين امرأة وخادمها، فلم يشك الحجاج في أمره إلا بعد فترة طويلة كما ذكرنا، وهو مجرد شك لم يذكر عنه أنه اكتشفه، فالإمام لا يترك أثرا يدينه إطلاقا؛ وهذا ينبئ عن سياسة محكمة في إدارة الدعوة في ظروف الكتمان؛ فأمر بنفيه إلى عمان خوفا من تزايد نشاط الدعوة الإباضية بعدما شعر أن وراءها ذاك الإمام الفقيه المناضل في الخفاء. وبهذا يتبين لنا الدور البارز الذي قام به الإمام جابر بن زيد في سياسة الكتمان، وأثره في الدعوة الإباضية، فقد حافظ على نشرها وترسيخها ردحا من الزمن، فكتب الله لها البقاء.

٢- التنظيمات السرية في عهد الإمام أبي عبيدة:

بعد وفاة الإمام جابر بن زيد -رضي الله عنه- سنة ٩٣ هـ على الراجح، استلم الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي زمام الأمور، فكان الإمام الثاني للمذهب الإباضي بعد مؤسسه الأول الإمام جابر بن زيد، وقد كان من كبار العلماء في الفقه والأصول والحديث بل وكان سياسيا منحكا من الرعيل الأول، يقول الشماخي: "تعلم العلوم وعملها ورتب روايات الحديث واحكمها وهو الذي يشار إليه بالأصابع بين أقرانه ويزدحم لاستماع ما يقرع الأسماع من زواجر وعظة وقد اعترف له بحوز قصب السبق في العلوم..." ^١ ولذا آلت إليه رئاسة المذهب، فقد امتاز بصفات ومؤهلات علمية وقيادية وخلقية؛ مكنته من إدارة شؤون الدعوة الإباضية، والحفاظ على انتشارها في أمصار مختلفة عن طريق الدعاة الذين كان يعدهم لهذه

^١ المرجع نفسه.

^١ الشماخي، أحمد بن سعيد، كتاب السير، ت أحمد بن سعود السيبي، وزارة التراث القومي والثقافة-سلطنة عمان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج ١، ص ٧٨.

المهمة، وساعد على ذلك سلوك الإمام أبو عبيدة مسلك الكتمان الذي سلكه سلفه من قبل بل وزاد في احتياطاته، وابتكر طرق وأساليب جديدة في التخفي عن عيون السياسة الأموية، منها أنه أقام مجلسا داخل سرب، وكان يؤوي فيه أصحاب الدعوة، ويتدارسون بداخله، وأدخل معه أدوات القفافة؛ ليتظاهر بصنع القفاف إذا أحس بقدوم أحدهم؛ ولهذا لقب بالقفاف، يقول الدرجيني: " وكان أبو عبيدة رحمه الله مستخفيا خوفا من بعض أمراء البصرة؛ فأدخلهم سربا وجعل فيه سلسلة وطفق يعمل القفاف بباب السرب فمتى رأى شخصا مقبلا حرك السلسلة فسكتوا فإذا انصرف حركها فأيأخذون في دراستهم " ^١ وهذا يدل دلالة واضحة على صفة الجلد والصبر وشدة التحمل في شخصية أبي عبيدة، وهي صفات مهمة في نجاح الدعوة إلى الله، ومما يذكر عن صبر أبي عبيدة أنه حينما سجنه الحجاج هو وضمام بن السائب، كان يعاملهم في السجن بقسوة، وقد أطل حبسهما، ولم يخرجهما من سجنه إلا بعد وفاته، كانا من الشدة يقصان الشارب بأسنانهما، وكان يأتيهما بالطعام الذي لا ترغب فيه النفس، وكان لونا واحدا من الأطعمة وهو الزيت والكراث، وقيل إنه استشار مجوسيا في ذلك قال له: أريد طعاما يعذبهما ولا يقتلهما، فأشار إلى الزيت والكراث، وهذا طعام متقوم؛ لكن النفس تتعب منه على الدوام خاصة إذا لم ينوع بغيره، ويبدو أن ضمام قد ضاق من قسوة المعاملة، وطول المكث في السجن، فقال له أبو عبيدة يحثه على الصبر والتحمل: على من تضيق يا ضمام؟ مشيرا إلا أن الله عز وجل يعلم بحالنا، وهذا ابتلاء منه، فلنصبر في سبيله، ولنحتسب عنده الأجر. إن هذه المواقف صنعت في نفوس الأصحاب قوة على تحمل أعباء الدعوة والقيام بالمسؤولية كما ينبغي خاصة في ظروف الكتمان القاسية. ومما ساعد على نجاح دعوة أبي عبيدة بروز شخصيات علمية وقيادية، كان لها دور فعال في القيام بشؤون تنظيم الكتمان مع أبي عبيدة كأبي مودود حاجب الطائي ^٢، الذي كان يقوم بشؤون المجالس وتنظيمها ومراقبتها، يذكر عنه أنه في يوم

^١ الدرجيني، طبقات المشايخ، ج ١، ص ٢٠، مرجع سابق.

^٢ هو: حاجب بن أبي مودود الطائي، أصله من عمان، ومولده بالبصرة، وهو من موالي بني هلال. تلقى العلم عن أبي عبيدة مسلم، وكان ساعده الأيمن في نشاطاته. أوكل إليه مهمة الإشراف على الشؤون المالية والعسكرية، والمتابعة لسير

من الأيام وصله عن بعض المجالس بعض المخالفات منها: أنهم ضموا في مجلسهم أكثر من العدد المسموح به، وفي قانون أبي عبيدة أن يكون العدد في المجالس عددا قليلا حتى لا يثيروا الريبة، فيشعر بهم الأعداء، والمخالفة الثانية: ارتفاع أصواتهم وهذا أمر مخالف للسرية، فقد يترك صوتهم إلى أسماع أحد المارة المعادين للدعوة، فيواشي عليهم؛ لذا كان من الاحتياط بمكان ألا تخرج أصواتهم عن مكان المجلس، وعندما سمع حاجب هذا الخبر أرسل مباشرة إلى أمير المجلس، وكان يدعى عبد الملك يحذره ويأمره بالالتزام فكان يقول له: "أرفق على نفسك يا عبد الملك ما هذا الذي بلغني أنكم تفعلوه، قال: إنا لنفعل وإن أمرتنا أن لا نفعل تركنا" ^١ فالتزم الجماعة كما يظهر من النص؛ وهذا يدل على طاعة الدعوة واحترامهم لمشايخهم وتنفيذهم لكل ما يأمرهم به، وعلى رقابة أبي مودود الدقيقة لهذه المجالس، وهذا أمر أكسب التنظيم السري قوة وتماسكا وبركة وحفظا؛ فجعله ينجح نجاحا كبيرا في ترسيخ الدعوة بعيدا عن خطر السلطات المعادية، وقد نبه أبو مودود على قضية الشجاعة التي لا تكون في محلها، وإنها تتسبب في تخريب الأمر المكتوم قبل نمائه أي الدعوة، فهناك ظروف تستدعي أن يكون المرء فيها خائفا لا خوف جبن، وإنما خوف حذر كما ظهر من كلام حاجب لعبد الملك وأصحابه حينما أحس منهم نوعا من عدم المبالاة أو عدم الخوف من المتربصين فقال لهم: "لئن تخافون وتعمرون لأحب إلي من أن لا تخافون وتخربون، أعمروا مجالسكم فإن الله يحفظكم" ^١ منها إياهم على ضرورة الأخذ بالأسباب قدر الاستطاعة، وهذا من حسن التوكل على الله.

إن لحاجب مهامها غير مراقبة المجالس وإدارتها وحسب، بل كانت توكل إليه أمور الحرب، وما تحتاجه من مال وسلاح فهو مع براعته في العلم كان بارعا كذلك في أمور السياسة والحرب "هو القائم بأمور المسلمين في مثل هذه الأشياء من أمر الحرب، وجمع الأموال، والمعونة،

الدعوة خارج البصرة، بينما اختص أبو عبيدة بأمر الدين والإفتاء والتعليم. انظر: مجموعة باحثين، معجم أعلام الإباضية - قسم المغرب - ص ١١٨.

^١ الدرجيني، طبقات الأباضية، ج ١، ص ٧. انظر: مهدي طالب، الحركة الإباضية، مرجع سابق، ص ٧١.

^١ الشماخي، السير، مصدر سابق، ج ١، ص ٩٩.

والخصومة وإلى أبي عبيدة يسند أمر الدين والفتاوى" ^١، ويتبين لنا من النص أن أبا مودود يعتبر القائد التنفيذي لشؤون المذهب، وأبو مسلم هو القائد العام وإليه مرجعية المذهب؛ إذ أن حاجبا لا ينفذ أمرا إلا بمشورة أبي عبيدة وهذا الأمر جعل لقيادة أبي عبيدة ثقلا وقوة في إدارة شؤون الدعوة؛ بسبب هذه الكفاءات القيادية العالية التي كانت تعينه على أداء مهام الدعوة كأبي مودود، ومما يدل على مسؤولية حاجب عن أمور الحرب وعن السرية التامة في إدارته لها، قصته مع المختار بن عوف الأزدي، وبلغ بن عقبة حينما اجتمع بهما في بيته، ولم يسمح لغيرهما بالدخول إلا من يعنيه الأمر ممن له علاقة بالمختار وبلغ " فأذن لنا فوجدنا المختار بن عوف ورجلين أو ثلاثة من المشايخ فقال لنا حاجب أخيرا بلغ بن عقبة وأخبراه بمكاننا" ^٢، أما باقي الدعاة فلم يسمح لهم بالخول كشعيب بن عمر على رغم أفضليته في الدعوة وقربه من بيته وبينهما قرابة بالمصاهرة؛ ولكن المجلس كانت له سرية التامة كونه يتعلق بأمر حساس هو أمر إمامة اليمن والحجاز، التي كانوا يخططون في كيفية إقامتها في ذاك المجلس السري، ولأن الأمر ما زال لم تقم له قائمة بعد؛ فأمر كتمانهم أولى وأوجب من إظهاره قبل أوانه، ولو كان للأصحاب والأقران، وهذه من حكمة قادة الدعوة وحنكتهم في إدارة الأمور ودليل، على أهمية الكتمان في الدعوة خاصة حينما يتعلق الأمر بالتخطيط لإظهارها وإعلانها أمام من يعاديها، فلو كشف الأمر قبل الإعداد الجيد لها لفشل الأمر؛ ولذا وجب الكتمان حتى الفرصة المناسبة للإعلان. ومن الحرص على السرية التامة كانت أمثال هذه المجالس الخاصة تقام في بيت حاجب وفي ظلام الليل " بلغنا ليلة أن في منزل حاجب مجلسا - قال أبو سفيان - وكان المشايخ لا يدعوننا أن نحضر معهم المجالس بالليل فقلت لرجل من أهل عمان انطلق بنا إلى منزل حاجب فلعلهم يأذنون لنا" ^٣ وبهذا أحكم حاجب من أمر سرية هذه المجالس المهمة، وأنتجت ثمارها بعد ذلك؛ بحيث خطط وأعد لثورة اليمن والحجاز هذا بعدما مكن أبو عبيدة وأرسل دعاته هناك، وانتشر المذهب انتشارا كبيرا، وصار الناس يحبون هذا المنهج، ويرغبون في

^١ الدرجيني، الطبقات، ج ١، ص ١٠٨. انظر: مهدي طالب، الحركة الإباضية، مرجع سابق، ص ٧٢.

^٢ الدرجيني، الطبقات، ج ١، ورقة ١٠٧. انظر: مهدي طالب، الحركة الإباضية، مرجع سابق، ص ٧٢.

^٣ الشماخي، السير، ص ٩١. انظر: مهدي طالب، الحركة الإباضية، مرجع سابق، ص ٧٢.

أن يكون الحكم يسير عليه، لا حكم التعسف والاستبداد الذي عانوا منه طويلا، وكل هذا دون أن يعلم أهل البصرة عامة، فضلا عن أتباع بني أمية، بأن حاجب هو وراء الدعم الذي أعد لإمامة اليمن والحجاز، وأن وراء حاجب أبو عبيدة، وليس الأمر مقتصرًا على ثورة اليمن والحجاز؛ بل وصل إلى المغرب وانتشر هناك وتوسع عن طريق دعاة أبي عبيدة، وأولهم كان سلمة بن سعد الذي قال: " وددت أن يظهر هذا الأمر يوما واحدا فما أبالي أن تضرب عنقي " ^١ فتأثر به الناس هناك وبدعوته وحسن سيرته، فارتحل إلى أبي عبيدة طلبه من المغرب، وتعلموا على يديه خمس سنين، ثم عادوا حملة له، وسموا بحملة العلم إلى المغرب وهم : (أبو الخطاب المعافري، وعبدالرحمن بن رستم، وعاصم السدراقي، وإسماعيل ابن درار الغدامسي، وأبو داود القبلي النفزاوي)، وقامت على أيديهم دولتان: الدولة الخطابية والدولة الرستمية، وظلت الأخيرة فترة طويلة من الزمن، عاش أهلها فيها في رخاء واستقرار، وانتعشت فيها الحركة العلمية وقويت العلاقات الخارجية. وفي عمان قامت دولتان ببركة طلبه أبي عبيدة، وحملة العلم إلى هناك، وهي دولة الإمام الجلندي بن مسعود (١٣٠هـ-١٣٢هـ)، ودولة الوارث بن كعب (١٧٩هـ-١٩٢هـ)، وكان لحملة العلم من البصرة إلى عمان الفضل الكبير في إقامة هذه الإمامات العادلة، وكانوا خمسة وهم: (منير بن النير ، وبشير بن المنذر ، وموسى بن أبي جابر، ومحبوب بن الرحيل، ومحمد بن المعلى)، ووصلت الدعوة إلى خرسان أيضا عن طريق طلبه أبي عبيدة ومنهم: (أبو يزيد الخراساني، وهاشم بن عبد الله الخراساني).

وهكذا انتشرت الدعوة الإباضية في عدة أمصار رغم الحصار والمضايقات التي عاناها أصحاب الدعوة في البصرة وما يتبعها؛ إلا أن لجوءهم لمثل سياسة الكتمان والاستعانة على قضاء مهام الدعوة في الخفاء بعيدا عن أنظار السياسة المعادية، جعلهم ينجحون نجاحا كبيرا في نشر دعوتهم، وترسيخها في عدد من المناطق والبلدان؛ نتج عنه قيام إمامات عادلة، تسير على منهج الكتاب والسنة، وتحذوا حذو السلف الصالح رضوان الله عليهم؛ بل وحذو نبينهم

^١ الشماخي، السير، مصدر سابق، ج ١، ص ١١٣.

وقدوتهم وإمامهم الأعظم - نبينا محمد صلى الله عليه وسلم - منبع وأساس فكر الكتمان، الذي سلكه صلوات ربي وسلامه عليه في بداية دعوته إلى الله تعالى في مكة المكرمة، ومنبع وأساس دعوة العدل والمساواة والشورى في الحكم، ومنبع وأساس عقيدة الحق؛ لتفجر هذه الينابيع الصافية بعدها لتروي زرعها، فيثمر الزرع، وينتج أعظم دولة إسلامية عرفها التاريخ.

المبحث الخامس: نظام العزابة

أولاً: تعريف نظام العزابة

العزابة: هي كلمة من العزوب وتعني العزلة؛ لأن العزابة غلب عليهم عزوبهم عن ملاذ الدنيا، ورغبوا فيما عند الله، وقد أقاموا هذا النظام الذي يحفظ مقصد الدين والحياة، ويحافظ على الكرامة الإنسانية، ويحث الناس على الخير والصلاح في الدين والدنيا والآخرة، وتعني كذلك التفرغ لخدمة المصلحة العامة؛ ولذا سمو أنفسهم "عزابة"، وقد عرفها أحمد حسين في كتابه الإباضية في المغرب العربي:

"هي هيئة محدودة العدد تعمل وفقاً لضوابط معينة للأشراف الكامل على شؤون المجتمع الاباضي الشؤون الدينية والاجتماعية والسياسية ويمثل العزابة الإمام ويقومون بعمله في حالة تخيب الدولة الاباضية"^١.

ثانياً: نشأة نظام العزابة:

سبق نشوء نظام العزابة ظروف وتقلبات سياسية شهدتها المجتمع الإباضي في دول المغرب؛ فبعد النجاح الكبير الذي حققه الإباضية في انتشار دعوتهم في بلدان المغرب العربي، وحرص الناس على التمسك بدعوة هذا المذهب ومبادئه من إقامة للعدل والشورى، ومساواة بين الناس، ومحاربة للفساد، ونصرة للمظلومين، وبعد أن تكونت الدول فكان من آخرها وأطولها امتداداً قبل ظهور نظام العزابة: هي "الدولة الرستمية" التي أقيمت في "تيهت" على يد الإمام عبد الرحمن بن رستم وامتدت من ١٦٠ هـ حتى ٢٩٦ هـ.

وفي ٢٩٦ هـ ظهرت الدولة الفاطمية التي كانت تنادي بالعودة إلى آل البيت، وبدأت تزحف نحو الدولة الرستمية؛ لأنها على غير منهجها، وخاضت معها حروباً طاحنة، وللضعف الحاصل في الدولة الرستمية في أواخر حكمها؛ انتهى ذلك إلى ذهابها، ولكن دعوة الإباضية لم تذهب

^١ أحمد حسين، الإباضية في المغرب العربي، دط، دن، دم، دت، ص ٣٣، ج ١ بحسب ترقيم المكتبة الشاملة.

فقد اضطر أصحاب المذهب المهجرة إلى مناطق تكفل لهم الحفاظ على دعوتهم من الفناء والحياة تحت ظلها، فمنهم من هاجر إلى جبل نفوسة، ومنهم إلى جربة، ومجموعة استقرت في وادي ميزاب، وقد استمروا ما يقارب القرن والنصف على مسلك الكتمان، بعدها ظهر الشيخ العلامة أبو عبدالله محمد بن أبي بكر النفوسي، وتوجه نحو وادي ميزاب، وابتكر هذا النظام في القرن الخامس الهجري؛ حتى يحافظ على دعوة الإباضية في ظل تلك الظروف القاسية المحيطة بهم وبدعوتهم، فأنشأ نظاما يجمع بين مسلك الكتمان والظهور، يقوم فيه العلماء بتدريس الطلبة القرآن وعلومه من تفسير وفقه وعقيدة، وغيرها، واهتم النظام في بدايته بالجانب العلمي، بعدها توسع ليشمل القيام بمصالح الناس الأخرى من أمور اجتماعية واقتصادية، وبدأ يتوسع النظام ويتشكل ويتطور سنة بعد سنة إلى أن وصل إلى النظام الذي نعرفه الآن، ومقره في الجزائر بوادي ميزاب.

ثالثا: شروط قبول الأشخاص في نظام العزابة

لنظام العزابة شروط جادة لاختيار الأعضاء وقبولهم فيه من ذلك:

- ١- أن يكون حافظا لكتاب الله تعالى.
- ٢- أن يكون ملتزما طاهر الظاهر والباطن.
- ٣- أن يلتزم بالزي الرسمي لنظام العزابة، خاصة حين خروجه للمجتمع؛ حتى يحفظ مكانة ومهابة النظام.
- ٤- ألا يكثر من التردد على الأسواق والملاهي، وأماكن الشبهات كعامة الناس.
- ٥- أن يتعد عن كل مخالفة شرعية، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر^١.

رابعا: مهام نظام العزابة

مهام النظام قريبة من مهام الإمامة، فهي دستور متكامل، ويمكن القول بأنها إمامة مصغرة؛ فلنظام العزابة مهام دينية واجتماعية واقتصادية وتعليمية وتربوية كالتالي:

^١ معمر، الإباضية في موكب التاريخ، مرجع سابق، ص ٨١-٨٢.

- ١- إشراف عام على كل الأمور الدينية والدنيوية المتعلقة بالمجتمع الإباضي ويرأس هذا الإشراف شيخ العزابة.
- ٢- مهمة القضاء وكل ما يتعلق به من إصدار الأحكام، ورد المظالم، ومعاينة المجرمين، وحفظ الأموال وحراستها.
- ٣- مهمة ميزانية النظام، وتنمية اقتصاده كالإشراف على الأوقاف ومحاولة تنميتها وتنشيطها والإشراف على كل صادر ووارد، الذي من شأنه إنعاش الاقتصاد وتنمية المالية.
- ٤- إشراف على الشؤون الاجتماعية، والنظر في أحوال الناس، وإعانة ذوي الاحتياجات الخاصة منهم، وتوفير أعمال لهم قدر الاستطاعة.
- ٥- إشراف على الشؤون التعليمية، وخاصة الصغار منهم، واقتطاع جزء من ميزانية الحلقة؛ لتنمية هذا الجانب كإقامة البرامج الهادفة وإقامة المسابقات والأمسيات النافعة وغيرها مما يصقل القدرات وينمي المواهب.
- ٦- العلاقات الخارجية والشؤون الدبلوماسية سواء بين الإباضية أنفسهم أم بين الإباضية وغيرهم،^١ والاتفاق على كل ما يصلح الأمة ويخدم الدعوة^١.

خامسا: دور نظام العزابة في كفاح الباطل

قال الشيخ باكلي عبدالرحمن: "حياة العزابة كلها كفاح ونضال وخدمة للجانب الروحي في الأمة، تصحيح عقيدتها، وتنقيتها في دينها، وبعثها على صالح العمل، وصرفها عن فاسده، وعن الانغماس في الرذائل والموبقات، والقيام عنها بعدة فروض كفائية لو تركت مرسلة ومهملة لاختل نظام الأمة وهلكت بتضييعها. أجل إنهم ينقطعون إلى إرشاد الأمة للصالح العام، ودعوتها إلى المحافظة على آدابها العامة، ومقاومة الظلم والرذيلة والبدعة في شتى صورها وأشكالها، لا تكاد تعدو هذه الميادين يوما، وتقوم بكل ذلك تطوعا، وابتغاء ما عند الله، لا يريدون جزاء ولا شكورا، ولا يتقاضون مرتبا من حكومة أو هيئة أو مؤسسة، ولقد امتحن معدنهم في هذا الميدان فأبان عن ذهب خالص لا زيف فيه ولا دغل، وأعربوا عن تعلقهم بما عند الله وما عند الله خير وأبقى"^١.

^١ انظر: معمر، الإباضية في موكب التاريخ، مرجع سابق، الحلقة الأولى، ص ٨٢-٨٣.

^١ معمر، الإباضية في موكب التاريخ، مرجع سابق، الحلقة الرابعة، ص ٢٣٠.

إنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يجري في عروق الإباضية، وهم الجماعة المؤمنة المحتسبة التي حفظت مكانة الأمة الإسلامية وتراثها ومبادئها العظيمة، وها هي جماعة منهم تحت اسم "نظام العزابة" يتفانون لأجل كفاح الباطل بكل ما أوتوا من طاقة وعلم.

لقد سعت العزابة جاهدة لسنين طويلة، ناكرة للمنكرات التي تفشت في أرجاء البلاد؛ بسبب جهل الناس، وبسبب الانفتاح الشديد غير الموزون مع الدول الغربية التي أولجت للمسلمين بعض المناكر، فسارع العزابة للتصدي لها، ونكرانها ودعوة الناس إلى الحق ومن ذلك:

١- كفاح مجموعة من البدع كالبناء على القبور والتوسل والتبرك بها، والتبرج عند بعض النساء وعدم لبس الحجاب الشرعي، وبدعة عدم العمل بالميراث الإسلامي، والعمل على طريقة الجاهلية؛ هذه البدع جاهد فيها العزابة أيما جهاد، وتعددت أساليبهم: فتارة بالنصح واللين، وتارة بالوعظ والتخويف، وأخرى بأخذ أصحاب المنكر بأيديهم ووضعهم عند حدهم حتى تنظرت البلاد من هذه البدع والخرافات الدخيلة على الأمة الإسلامية.

٢- كفاح الظلم: كقضية التجنيد الإجباري لدى الاستعمار الفرنسي والتي استمر كفاحها أكثر من ثلاثين سنة فقد بدأت منذ عام ١٩٢١م إلى أن تم إلغاؤها بشكل نهائي عام ١٩٤٣م^١.

لم يتوان العزابة لحظة في كفاح الظلم مهما كان مصدره بالطرق المتاحة لديهم، فهم سلاحهم العلم، ودرعهم التقوى، وقدوتهم في هذا قول الله تعالى: ((ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن))^١ فكانت الثمرة صلاح المجتمع، وانتشار العدل، واستتباب الأمن، وشعور الناس بالوئام والتكاتف والتعاون فيما بينهم؛ وهذه هي بركة من قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبركة نظام أخذ من مسالك الدين منهاجا له في تدارك أحوال الأمة، وردّها إلى صوابها.

^١ انظر: معمر، الإباضية في موكب التاريخ، مرجع سابق، ص ٢٣١-٢٣٢

^١ النحل: ١٢٥

هذا؛ و" يجب ألا توطن الأمة نفسها على دوام هذا الوضع، بل يجب عليها أن تعمل على تغيير الإمامة الناقصة بإمامة كاملة مستوفاة الشروط المطلوبة في الإمام الحق، بالوسائل التي لا يكون فيها فتنة بين الناس، ويجب السعي دائما لأن يكون الإمام آت بالطريق الصحيح وهو طريق الشورى" ^١

٤

^١ الصلاحي، علي محمد محمد، الإباضية مدرسة بعيدة عن الخوارج، ط١، دار القمطاطي، بيروت، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م،

الخاتمة

الإمامة في شرع الله واجبة متى ما استوفت شروطها؛ لأنها من ضروريات الشرع الحنيف، وهي الوسيلة التي تنفذ تحت ظلها أحكام الله التي أنزلها على عباده، ولا يمكن أن يتصور مسلم أن يعيش بعيدا عن دولة تحافظ على كيانه كمؤمن له حقوقه في الإسلام كلها وعليه حقوق غيره، يعيش تحت قوة تقول له اعبد الله كما أمرك، وحقق عبوديتك كما ينبغي، ولا تخش الأعداء؛ فأنت في حماية الإسلام وأمانه. والسؤال الذي يطرح نفسه: ماذا لو تعذرت هذه الإمامة بأي ظرف من الظروف؟ هل سيعيش المؤمنون مشتتين مشردين، لا قائد لهم فيجمعهم على كلمة، ولا دولة لهم ف يعيشون تحت كنفها؟ هل أوجد الإسلام حلا لهذا الأمر الواجب الضروري الذي تعذر حصوله؟ الإجابة -بلا شك- نعم، فالإسلام، الذي أوجد حلا لمن كاد أن يقتله الجوع بأن أذن له بأكل الميتة وهي في أصلها حرام، لا يعجز أن يعطي للمجتمع الذي تعذرت فيه الإمامة حلا، والحل على درجاته فلم يؤذن للجائع مثلا أن يأكل الميتة، وهناك شيء من النبات بالإمكان أن يسد رمق حياته به؛ إذن فالضرورات تبيح المحظورات، ولكن هذه المحظورات قبل كل شيء تقدر بقدرها، وهنا لست بصدد أن أتكلم عن حل في محظور فيما يخص موضوع تعذر الإمامة؛ بل الحلول لها كلها في دائرة المباحات، ولكن أردت أن أبين صورة وهي أن الإسلام دين واسع، يجد لك حلا في كل أمر تعذر عليك حتى في أحلك الظروف التي لا محيص من الموت أو أكل الميتة، فتراه يختار لك أكل الميتة حفاظا على النفس، التي هي نعمة لا تقدر بثمن، فكيف إذا كان الحل في شيء مباح من أصله؟ أليس الواجب أن نقبله ونتمسك به؟ نعم، فالإسلام أوجد للأمة مسالك في الدين، ومراحل تنتقل فيها حينما يتعذر ظهورها أي- قيام دولة مسلمة تحكم بكتاب الله- فحينما يتعذر الظهور يمكنها أن تكون في كتمان، إن هي ضعفت لحد لا تقوى فيه على منازعة عدوها، وقد يضطر الأمر إلى أن تكون لزاما في حالة دفاع إن هي أحست ببأس لا بأس به وقوة يمكنها أن تصمد بها في وجه عدوها، ويمكن أن يكون في الأمة شراة أشداء على الكفار رحماء بينهم، يبيعون لله أنفسهم، ويشرون الدار الآخرة في حال يأس المؤمنين وتسلط لا يمكن أن يطاق من قبل

المجرمين، ولا أجامل إن قلت بأن هذه المسالك هي التي حفظ الله بها دينه منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وحتى يومنا الحاضر، والتجربة الإباضية شاهدة على ذلك، حتى أن بعض الكتاب ليعجب كيف أن المذهب الإباضي نجا وبقي إلى يومنا هذا رغم حملات الإبادة التي تعرض لها، والعداوات المستمرة ضده، بينما فرق أخرى فنت ولم يكتب لها البقاء! والحقيقة بأن المتأمل في التاريخ الإباضي يجد بأن السياسة الإباضية المتمثلة في مسالك الدين هي التي ساعدت على بقاء هذه الدعوة، وحفظتها من الانقراض، هذا بعد حفظ الله لها، وإخلاص أصحابها. ولذا فمن الواجب على كل مسلم أن يعتني بهذه القضية، وعلى الباحثين من جميع المذاهب أن يولوا اهتماما بدراستها، فإلى الآن لم تنل حظها من الدراسة. وأريد أن أشير إلى أمر بآني آمل أن يكون هناك بحث متكامل عن النظرية الإباضية (مسالك الدين)؛ فيمر على جميع مواطنها في الميدان الإباضي، وينسب كل موطن إلى مسلكه؛ ليتسنى للجميع معرفة التجربة عن قرب، وتخيل أثرها وبركتها. وأعترف بأن بحثي هذا ليس إلا واجهة تعرف القارئ على الأقل بأثر مسالك الدين في دعوة الإباضية، عن طريق تعريف كل مسلك وذكر شروطه ومشروعياته وأهدافه ودوافعه وكيفية سلوكه، مستشهدا بذكر بعض المواطن لكل مسلك كنماذج؛ حتى تثبت صدق ما كتبه أهل الفلسفة عن هذه النظرية من جانب التنظير، وهذا طبعاً لم نجده إلا قليلاً؛ ولذا نطمح أن يجعل هذا الموضوع في عين الاعتبار، نتمنى أن يشمل بدراسة مستوفاة يجمع فيه الدارس العرض التاريخي كدليل وشاهد عليها، مع التحليل الفلسفي ليتسنى للقارئ أن يفهم الأمر كما ينبغي، وله حرية الحكم بعد ذلك.

ختاماً: رب صل وسلم على سيدي محمد، وآله وصحبه وسلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

إبراهيم بكير، القضاء في المغرب الإسلامي من تمام الفتح حتى قيام الخلافة الفاطمية، ط ٢، جمعية التراث، الجزائر، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، ط ١، دار صادر- بيروت، ١٤١٤هـ.

أحمد حسين، الإباضية في المغرب العربي، دط، المكتبة الشاملة، دم، دت.

الأصفهاني: أبو الفرج، الأغاني، ط ١، تحقيق: يوسف البقاعي وغريد الشيخ، بيروت، لبنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، سنة: ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج ٢٣.

البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، ط ١، دار الفكر- بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ج ٥.

الجعيري فرحات بن علي، رسائل الإمام جابر بن زيد الأزدي، ط ٣، مكتبة الضامري، لسبيب، سلطنة عمان، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، ط ٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.

الخليلي، أفلح بن حمد، السياسة الشرعية عند الإمامين المحقق الخليلي والعلامة السالمي، ط ١، ذاكرة عمان، سلطنة عمان، مسقط، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

الدرجيني، أحمد بن سعيد، طبقات المشايخ بالمغرب، ت إبراهيم طلاي، دط، دن، دم، دت، ج ١.

الربحية جميلة بنت علي، إضاءات من دور الإباضية في توحيد الأمة، ط ١، مكتبة الجيل الواعد، مسقط، عمان، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

الرواحي، سالم بن محمد، الإمامة والأئمة في عمان، ط ١، مكتبة الضامري، السبيب، سلطنة عمان، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.

زهير تغلات، الفكر الإباضي التجليات السياسية والحضارية، ط ١، دار الحوار، اللاذقية، سورية، ٢٠١٦م.

السالمي، عبدالله بن حميد، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، ت أبو إسحاق أطفيش، مطبعة الشباب، القاهرة.

الشعيلي: محمد بن حمد، التأريخ العماني قراءات وتحليلات، ط ١، دار الفرقد، ٢٠١٥م.

الشقصي: خميس بن سعيد، منهج الطالبين، تحقيق: سالم بن حمد الحارثي، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، سنة ١٩٧٩م، ج ٨.

الشماخي، أحمد بن سعيد، كتاب السير، ت أحمد بن سعود السيبي، وزارة التراث القومي والثقافة-سلطنة عمان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

الصلابي، علي محمد محمد، الإباضية مدرسة بعيدة عن الخوارج، ط ١، دار القماطي، بيروت، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.

الطبري، تأريخ الطبري= تأريخ الرسل والملوك، ط ٢، دار التراث- بيروت، ١٣٨٧هـ، ج ٥.

عدون جهلان، الفكر السياسي عند الإباضية، ط ٣، مكتبة الضامري، السيب، سلطنة عمان، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

مجموعة باحثين، معجم أعلام الإباضية، دط، دن، دم، دت.

مجموعة باحثين: معجم مصطلحات الإباضية، ط ١، سلطنة عمان، مسقط، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سنة: ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

معمر، علي يحيى، الإباضية في موكب التأريخ، مراجعة سليمان بابزير، ط ٣، مكتبة الضامري، السيب، سلطنة عمان، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

معمر، علي يحيى: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ط ٣، جمعية التراث- القرارة-غرداية الجزائر، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.

- النامي، عمر خليفة: دراسات عن الإباضية، رسالة دكتوراة، جامعة كومبرج، ١٩٧١م.
- النامي، عمرو خليفة: دراسات عن الإباضية، ط٢، ترجمة: ميخائيل، تونس، دار الغرب الإسلامي، سنة: ٢٠١٢م.
- الندابي، ناصر بن علي: الإمامة الإباضية في اليمن والحجاز، ط١، مكتبة الضامري - سلطنة عمان - السيب، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.
- هاشم، مهدي طالب: نشأة الحركة الإباضية بالمشرق، ط٢، دار الحكمة - لندن، ٢٠١٣م.

تم بحمد الله.